الجزء الثانى

تحليل تشريحى

الفصل الخامس

فى سبيل تكساس والبيزنس والرب

قليل من توقعوا أن تكون رئاسة جورج بوش الابن دراسة فى حركة المحافظين. بوش ذو أصول پراجماتية. فأبوه كان جمهوريًا مؤسسيًا أحاط نفسه بواقعيين معتدلين من أمثال كولن پاول وبيكر وبرنت سكوكروفت. وخرج جورج بوش الابن من جناح الحكام «الحساس» من الحزب لا من الفرع التشريعى الذى ينفث نارًا؛ فحكام الولايات يمضون وقتهم فى تحقيق التوازن فى الموازنة وبناء الجسور، ولا يحلمون بخطط تقضى بإرسال المعوقين إلى الفضاء الخارجى (كما حلم نيوت جينجريتش ذات مرة). وأخذ بوش طوال الحملة الانتخابية يرسل تلميحات ثقيلة بأنه معتدل. وأخذ يركز على أنه «محافظ رحيم» (كان من الواضح أن الهدف هو أن تفترض وسائل الإعلام الليبرالية أن كلمة «رحيم» رمز حركى لكلمة «معتدل» لأن كلمة «متحمس» تعنى «عديم القلب»). وأضاف بعض المراوغة عن تنوع آراء الجمهوريين حول موضوع الإجهاض المثير للجدل، وتحدث عن إيثاره «حكومة مركزة نشطة».[١] وأراد توسيع نطاق وزارة التعليم، مع أن هناك استطلاعًا للمندوبين الموفدين لحضور مؤتمر الجمهوريين فى سنة ٢٠٠٠ بين أن ٧٩٪ من أنصاره كانوا يريدون التخلص منها برمتها.[٢] وعثر بوش على كلمة جذابة عن ليندون چونسون والستينيات: «كثيرًا ما أشار حزبنا لحدود «المجتمع العظيم» وعيوبه. ولكن كانت هناك مميزات أيضًا، منها مشروع «ميديكير» للرعاية الصحية».[٣]

كان هناك جانب شخصى للموضوع. فبوش كان على خلاف دائم مع اليمين الجمهورى. وكان ينتقد نيوت جينجريتش لقسوته وروبرت بورك لتشاؤميته. وكان رد اليمين مريبًا. وأمر دان كويل مساعديه ألا يلفظوا بكلمة «محافظ رحيم»: «هذا المصطلح الغبى المهين ابتدعه الجمهوريون الليبراليون، وليس سوى رمز للتخلى عن قيمنا ومبادئنا». وأدان پات روبرتسون مؤتمر الجمهوريين فى سنة ٢٠٠٠م لموقفه الوسطى باعتباره «ديمقراطيًا مخففًا».

صحيح أن بوش تحدث قبيل انتخابات ساوث كارولينا التمهيدية فى فبراير ٢٠٠٠م فى جامعة بوب چونز - وهى مكان يحظر التواعد بين الفتيان والفتيات من أعراق مختلفة - بهدف تعبئة المحافظين الاجتماعيين ومنع چون ماكين من تكرار انتصاره فى نيوهمپشاير. ووعد بخفض غير معقول للضرائب. إلا أن معظم الناس رأوا أن هذا ما ينبغى لأى أرستقراطى شاب «متربى» أن يفعله لكى يفوز بترشيح الجمهوريين (كان بوش الأب قد تحدث أيضًا فى جامعة بوب چونز فى سنة ١٩٨٨م). وكيف لرجل يريد الإبقاء على «الوقف الوطنى» للفنون أن يكون محافظًا حقيقيًا؟

وكان هناك سبب آخر لتوقع الاعتدال فى سنة ٢٠٠٠، ألا وهو فوز بوش بهامش شديد الضآلة. فهو خسر الصوت الشعبى، وأخذ فلوريدا بفارق بضع مئات من الأصوات - ثم أنهى إعادة عد أصوات فلوريدا من قبل المحكمة العليا الخاضعة لسيطرة الجمهوريين بنسبة ٥ - ٤ من الأصوات. لا شك أن أى إنسان يمر بمثل هذه المحنة سيتولى إدارة البلاد بمهانة. وظن المعتدلون - لا سيما المحيطون بكولن پاول - أنهم هم الذين فازوا بالانتخابات، وبالتالى فإنهم سيتحكمون فى الرئيس.[٤]

ومع ذلك، فإن فوز بوش الضعيف لم يفرز رئاسة ضعيفة. فمنذ البداية الأولى تكشف البيت الأبيض فى عهد بوش عن درجة فائقة من التنظيم والمحافظة. وفى غضون ستة أشهر، أقدم بوش على تنفيذ جدول أعمال شديد الطموح - أكبر خفض للضرائب منذ عهد رونالد ريجان، وإصلاح جذرى للتعليم، والغاء الكثير من لوائح الأعمال. ودبر أكبر تحويل للسلطة من الفرع البرلمانى إلى الفرع الرئاسى منذ عقود، وهو تغيير بدأ بمجرد توليه مهام منصبه، ولكنه تزايد عقب أحداث ١١ سپتمبر ٢٠٠١م. وتحول رئيس الصدفة إلى أقوى رئيس منذ أن أذلت واترجيت الرئاسة فى سنة ١٩٧٤م.

كيف نجح جورج الثانى فى أن يتحول إلى ملك واشنطن؟ كان نجاحه فى جزء منه شهادة لمزيتين غالبًا ما يساء تقديرهما فى السياسة، وهما التنظيم والخبرة. فعلى عكس سلفه الأكثر عقلانية، الذى كان يعقد الاجتماعات لساعات طويلة إذا لزم، أوضح بوش أنه يؤمن بالنظام. فهو يحب أن تبدأ الاجتماعات وتنتهى فى موعدها أو قبله حتى. وذات مرة وصل أحد مستشاريه الاقتصاديين قبل موعد أحد الاجتماعات بخمس دقائق ليجد سكرتيرة الرئيس وقد بدت عليها أمارات القلق، فالاجتماع السابق انتهى مبكرًا وأراد الرئيس أن ينهى الآخر. فبدأ المساعدون يأتون قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة منذ ذلك الحين. وعلق تونى بلير لأحد أصدقائه بأنه عندما كان يتحدث إلى بيل كلينتون كان يشعر أنهما صديقان حميمان أيديولوجيًا؛ حتى أن كلاً منهما كان ينهى عبارات يقولها الآخر، ولكن فيما يتعلق بتقديم أجوبة واضحة والتزامات صارمة فإنه يؤثر التعامل مع بوش. كما لاحظ الصحافيون الفارق، فشكا داڤيد بروكس من البيت الأبيض الجديد قائلاً: «إنهم لا يدعون الأخبار تتسرب، ولا يثرثرون، ولا يطعن أحدهم الآخر فى ظهره. إنه كابوس».[٥] ويحب بوش أن يمضى المساء مع زوجته وأن يأخذ فواصل للراحة فى أثناء النهار. وعندما سحب أحد المخبولين مسدسًا بالقرب من البيت الأبيض فى أوائل رئاسته، كان ديك تشينى يعمل على مكتبه بينما كان بوش يمارس الرياضة. وقال لمساعديه أنه لا يرى سببًا لاعتبار أن العمل بالبيت الأبيض لا يتوافق مع حياة عائلية متوازنة.

كما استندت إدارة بوش على ثروة من التجارب. ففى سنة ٢٠٠٠م، كان هناك ارتياح عام فى واشنطن لعودة الكبار إلى سدة الحكم واختفاء أشباح مونيكا لوينسكى ومارك ريتش وكن ستار وغيرهم من أشباح كلينتون. كان دونالد رامسفيلد أول من وصل إلى واشنطن تحت إدارة نيكسون. فكان رئيس أركان فورد قبل ترك المهمة لديك تشينى. وكان كولن پاول رئيس الأركان المشتركة فى عهد كل من بوش الأول وكلينتون.

كان أهم أسباب حيوية الإدارة الجديدة المفاجئة وجود إحساس واضح لديها بالاتجاه. ولا شك أن نزعة بوش المحافظة زادت حدة نتيجة لأحداث ١١ سپتمبر، إلا أنها كانت واضحة قبل ذلك بمدة طويلة. فالتخلص من معاهدة كيوتو، وفقد عضو

مجلس الشيوخ الجمهورى المعتدل چيم چيفوردس، وبدء إجراء خفض هائل فى الضرائب، والتخلص من معاهدة الصواريخ البالستية المضادة، كل ذلك حدث قبل هجمات سپتمبر.

فما الذى دفع بهذه النزعة المحافظة؟ سنتطرق فى الفصول السادس والسابع والثامن إلى مختلف جوانب الحركة المحافظة وكيف دفعت برئاسة بوش، أما الآن فنبدأ بالتأثيرات الثلاثة التى تعرضت لأكبر قدر من السخرية وشكلت النزعة المحافظة الشخصية لدى چورچ بوش الابن، وهى تكساس والبزنس والدين. فهذه العوامل الثلاثة تعين على فهم سبب تكون مثل هذه الشخصية المثيرة للخلاف والشقاق فى أمريكا لدى بوش، إلا أن أكبر ثغرة فى الفهم نجدها بين بوش والعالم الخارجى. فمن الصعب أن نجد زعيمًا سياسيًا تجسد قيمه الأساسية الثلاث «أمة اليمين» التى لا يستطيع الأوروپيون فهمها.

يمكنك أن ترحل بالرجل عن تكساس ...

عشية توليه مهام منصبه، اصطحب الرئيس الجديد أسرته إلى حفل رباط عنق أسود وحذاء برقبة، يقدم عجولاً طويلة القرون، يحضره عشرة آلاف من أهالى تكساس الحقيقيين أو الشرفيين، ومنهم السيناتور كاى بيلى هتشيسن الذى كان ينتعل حذاء رعاة البقر مصنوعًا من جلد النعام باللونين الأحمر والذهبى.[٦] وقال بوش للضيوف: «لا يهمنى ما إذا كنتَ جمهوريًا أم ديمقراطيًا. المؤكد أنه لشىء عظيم أن تكون تكساسيًا فى واشنطن العاصمة. وإنى لأتطلع إلى قدر من الحس التكساسى السليم الطيب».

ولم يكن چورچ بوش الابن يفتقر إلى الحس التكساسى، سواء الطيب أو غير الطيب فى إدارته. فأقرب مستشاريه هم عادةً من أهالى تكساس بصور أو أخرى. فكارل روڤ صنع حياته العملية فيها، وكارن هيوز مستشارته الأخرى عادت إلى تكساس مبكرًا لأن زوجها وولدها أحسا بالغربة. ومن أهالى تكساس الآخرين بالإدارة دون إيڤانز وزير التجارة وربما أقدم أصدقاء بوش، وألبرتو جونزالس مستشار البيت الأبيض سكرتير عام تكساس السابق. وفى الأشهر التى تلت تنصيب بوش، كانت تقريبًا كل سيارة بساحة الانتظار الخاصة بالبيت الأبيض تحمل لوحة مرور من تكساس.

إلا أن تأثير تكساس على بوش لم يكن يرتبط بأناس بعينهم بقدر ما كان يرتبط بحالة ذهنية. فمنذ البداية، كان بوش يقضى أطول وقت يتاح له فى مزرعته فى كروفورد، ولم يسأم قط من رؤية الدنيا بمنظور تكساسى. والرد على كل من قد يتساءل «وما الذى يميز تكساس؟» هو أنها أمريكا مصغرة. تكساس هى أمريكة أمريكا، أو على الأقل أمريكة أمريكا المحافظة. عليك أن تفكر فى السمات ـ الحسن منها والسىء ـ التى تميز أمريكا ـ مساحتها وتنوعها وتفاؤلها وثقتها بنفسها وماديتها وتبجحها وقدرتها الفائقة على صنع شىء من لا شىء وعنفها وتدينها ـ وستراها كلها مجسدة فى أنقى حالاتها فى تكساس.

ولنبدأ بالمساحة. مساحة تكساس تساوى مساحة بريطانيا وفرنسا معًا تقريبًا. ومن مقاطعات هذه الولاية البالغة ٢٥٤ ما يفوق من حيث المساحة ولاية كونيكتيكت التى كان ينتمى إليها پريسكوت بوش. وحين زار بوش إسرائيل، صدم حين علم أن مساحتها لا تزيد عن طول بعض دروب تكساس لسوق الماشية. ومساحة الولاية تدعو لتدخل بشرى عنيف فيها، فهى مجموعة من السهول المملة والصحارى الشاسعة والأراضى الوعرة. وصفها ستيڤن أوستن المستعمر القديم بأنها «قفار قاسية لا متناهية». ساحل الخليج مناخه رطب يملأه البعوض ويغرقه المطر الغزير. وغربها قفر. والريف على أطرافها صخرى. وسهولها الشمالية تسكنها الريح. وأهالى تكساس لا يجملون بيئتهم. وزراعة القطن المكثفة دمرت تربة أسرة الأنهار كما دمر الرعى المفرط تربة البرارى. وخلف المضاربون فى النفط بلدات أشباح وراءهم وبركًا من التلوث. فهذه أرض تفرز احترامًا قاسيًا لقدرة الإنسان على السيطرة على الطبيعة، على عكس النزعة البيئية الرقيقة المزدهرة فى مدن أوروبا الصغيرة وريفها الجميل.

والمساحة يواكبها تبجح الزهو، تبجح متأصل فى حمض الولايات المتحدة النووى. وكانت مناشير الاستثمار التى أغرت آل إليزابيث بالاستثمار فى شركات ماساشوستس وڤيرچينيا ملأى بحكايات طويلة عن «العالم الجديد»؛ وكذلك كانت حكايات الذهب فى الغرب الأمريكى والتى أطلقت عربات القطار. إلا أن هذا التبجح خف منذ أمد بعيد على الساحل الشرقى، مما يرجع فى جزء منه إلى الرغبة فى الفوز برضا أوروبا القديمة «المتحضرة». وأهالى تكساس لا يبالون كثيرًا بأوروبا القديمة. وهم، سواء من

يعيش منهم فى ترف أو فى فاقة، يرون أن لديهم الأفضل من كل شىء. وهذا الزهو لا يجعل الآخرين يحبون تكساس كثيراً حتى فى الغرب الأمريكى نفسه. (عندما تعطلت سيارة أحدنا، والتى كانت تعمل لوحات تكساس، فى أوائل الثمانينيات بجنوب كولورادو، لم يتوقف أحد لمد يد العون فى هذه البقعة النائية؛ وبررذلك الرجل الذى توقف للمساعدة قائلاً: «كان عليكم أن ترفعوا شارة تقول إنكم لستم من تكساس»). ومع ذلك فإن أهل تكساس لديهم ملكة تحويل زهوهم إلى واقع. إذ أفلحوا فى ترويض بعض من أكثر بقاع أمريكا وعورة عن طريق مكيفات الهواء والأسمنت ورقائق الحاسوب. والولاية التى كانت ريفًا أضحت الآن حضراً، وباتت تضم ثلاثًا من أكبر المدن فى البلاد.

أفرزت رأسمالية تكساس المغامرة بعض قصص التحول من الفقر إلى الثراء؛ منها قصة إس. إم. داد چوينر راعى البقر البالغ من العمر إحدى وسبعين سنة، والذى أغرق آخر ما لديه من مال فى حفار وصل به إلى النفط على عمق ٣٦٠٠ قدم، أو أسرة هَنت الفضية التى ساعدت على تذهيب أطراف النزعة المحافظة الأمريكية الوعرة. كما أفرزت شركات پوتيمكين ومنها شركة إنرون، وموقفًا يتسم بقدر من الرعونة من الثراء. يقول مايكل ليند إن «النخبة النفطية» فى الولاية تمارس ضرباً من الرأسمالية أقرب إلى المقامرة منه إلى أخلاقيات ماكس ڤيبر البروتستانتية. وتشتهر تكساس بقصورها الضخمة وكتالوج بارونات النفط بال ونيمن ماركوس، الذى يتحدث عن زرافات فى حوزة هذا وذاك وغواصات يملكها هذا وذاك.[٧] كما تشتهر الولاية بفقاعات المضاربة. فشهدت الثمانينيات ثقب ما لا يقل عن ثلاث منها فى مجالات النفط والعقارات والمدخرات والقروض. وتشهد الولاية حاليًا انهيار كل من إنرون وانفجار فقاعة التقنية الراقية.

ينطبق الازدهار الذى يعقبه انهيار على الحكومة أيضًا. وكل من تزعجه الإستراتيچية المالية الرعناء التى ينتهجها چورچ بوش الابن عندما يخفض الضرائب بينما يزيد الإنفاق، يمكن أن يعود إلى الوراء قليلاً ليجد أنه فعل الشىء نفسه فى تكساس. ففى أواسط التسعينيات، أجرى خفضًا كبيراً فى الضرائب ومزيداً من الإنفاق لا سيما على التعليم. وفى ٢٠٠٣م كان مجلس تكساس التشريعى النكد يحاول أن يسد عجزاً قدره عشرة مليارات دولار فى الموازنة. وأخذ بوش ولعه

بالمقامرات السياسية الكبرى معه إلى واشنطن. وليس هناك رئيس آخر كان يسعد بالمجازفة ـ من تمزيق معاهدات الحد من التسلح الموقعة إلى غزو العراق ـ باستثناء رونالد ريجان. وكل مقامرات بوش كان بها عناصر حسابية، إلا أن توجهه العام هو «الفوز لمن يجرؤ».

وإذا كانت تكساس سخية مع من يلقى بالنرد ويفوز، فهى قاسية على من يفتقر للحظ. تكساس أرض الضرائب المنخفضة والنقابات الضعيفة والقطاع العام الواهن وإعانة البطالة الشحيحة، وكلها تضمن التعايش بين الوفرة والفقر، فأبراج هيوستون ومعارضها المتلألئة تجاور الشوارع غير المعبدة وأكشاك بيع الأسلحة، ويتربع مركز المدينة الطبى العالمى على قمة نظام رعاية صحية لا يصل إلى أفقر مواطنى الولاية. وتباهى جامعة تكساس بطاقم من الأساتذة يناطح النجوم وبثانى أكبر وقف فى البلاد بعد هارڤارد، يضم ٢,١ مليون هكتار من آبار النفط الغنية. ومع ذلك تضم تكساس بعضًا من أردأ المدارس فى البلاد.

لا شك أن بوش حين كان حاكم الولاية سعى لتحسين مدارسها. إلا أن موقفه من بقية هذا النظام من الضمان الاجتماعى كان يتلخص فى البحث عن سبل لتقليصه بدرجة أكبر. كان شديد التأثر برأى مارڤن أولاسكى القائل إن التنظيمات الدينية أفضل فى حل مشكلة الفقر من بيروقراطية الضمان الاجتماعى لأنها تسعى لتغيير قلوب الناس بقدر ما تغدق عليهم من المال. وكان نقاد أولاسكى قلقين من أن بعض التنظيمات الدينية الأصولية التى يعجب بها كانت أشبه بالمعتقلات، حيث يتم إرغام الأطفال العصاة على الركوع لساعات وهم ممسكون بالكتاب المقدس. كما هاجموا فكرته بأن فصل الدين عن الدولة «ربما لم يكن فكرة طيبة».[٨] ومع ذلك واصل بوش طريقه. وبدت قسوته بصفة خاصة فى تفكيك برنامج علاج الإدمان من المخدرات والكحوليات فى السجون الذى أقرته سلفه آن ريتشاردز. ولم يكن بوش بحاجة لبرنامج من اثنتى عشرة خطوة لكى يتغلب على مشكلته مع الكحوليات؛ فقد نجح على «طريقة الجمهوريين» حسب تعبيره، أى بالنظام والإيمان، وكان يريد لمساجين الولاية أن يتعلموا من حاكمهم. بل إنه سلم جناحًا بأحد سجون تكساس لتشك كولسن، وهو أحد أوغاد واترجيت التائبين وسجين سابق. وربما أمكن تسمية وصفة كولسن

انغماس كامل فى المسيحية البروتستانتية، فكان النزلاء يجبرون على حضور القداسات الدينية ودروس الكتاب المقدس بكنيسة السجن من الفجر إلى المغرب.

وتكساس مشبعة بالروح العسكرية قدر تشبعها بالبروتستانتية. فالمنطقة المحيطة بسان أنطونيو تجسيد للمجمع العسكرى الصناعى، حيث تضم قاعدة للجيش وقاعدتين للقوات الجوية ومركزًا طبيًا ضخمًا للجيش وعشرات الشركات ذات الصلة بالدفاع وآلاف من المحاربين القدامى. وفورت هود القريبة من واكو تعد ثانى أكبر قواعد الجيش. وقام مصنع بانتكس المقام على مساحة ١٦ ألف هكتار فى غرب تكساس بتجميع آلاف من الرءوس الحربية النووية إبان الحرب الباردة، ويستغل حاليًا فى تخزين ما تبقى من ترسانة أمريكا النووية.

وعلى الرغم من خدمته الخفيفة فى «حرس تكساس الوطنى» أثناء حرب ڤيتنام (لتأمين سماء «ولاية النجمة الوحيدة» من الغزاة من أهالى لويزيانا) فإن بوش كان يجد متعة فى الجيش دائمًا. وكان أسعد الناس أن يكون رئيسًا عندما سار بخطوات واسعة على ظهر حاملة الطائرات إبراهام لنكولن فى زى طيار (بعد أن قاد لتوه طائرة حربية بنفسه) ليعلن (قبل الأوان) نهاية العمليات القتالية فى حرب العراق فى سنة ٢٠٠٣م. وعندما أعلن الحرب على العراق، لم يكن يساوره أى قلق عن الأهداف والوسائل؛ فما كاد يتخذ القرار حتى خرج إلى الحديقة ليلهو مع كلبه. كان ديفى كروكت وبقية فريق ألامو سيفرحون به ويفخرون.

ولا تقتصر ذكورية تكساس على التنوع العسكرى. فهذه الولاية تمثل نقطة التقاء بين منطقتين هما الأكثر عنفًا فى البلاد، الغرب والحدود. فتكساس التى روضها رعاة البقر المهرة فى استعمال المسدسات لا تزال «منقوعة» فى ثقافة المسدسات. حتى فى شركة دل للحواسب فى مدينة أوستن الليبرالية، ستجد علامات تدلك أين تترك مسدسك. فهذه ولاية يعتبر من لا يمارس صيد البر من الرجال فيها شاذًا (لكن هذا لا يعنى أن الشواذ من أهل تكساس لا يؤدون دورهم فى قهر الحياة البرية) واشتهر قول أحد قاتليها بأن القتيل «كان بحاجة لأن يُقتل». ولا تزال الولاية تمثل معدل جرائم قتل أعلى من غيرها من الولايات الكبرى، على الرغم من أن ٤٥٤ شخصًا يقفون فى انتظار تنفيذ عقوبة الإعدام ـ أى ١٣ ٪ من الإجمالى القومى.

كان بوش يتعامل مع موضوع «المجرمين الذين هم بحاجة لأن يُقتلوا» برباطة جأش مخيفة، وتم إعدام أربعين شخصًا فى آخر سنوات ولايته كحاكم. أما بالنسبة للمسدسات، فهو يدير إدارة تخرج للصيد وتطلق النار بحماس لا وجود له فى الطبقات العليا من الإنجليز. وبوش صياد سمك بارع ورام جيد. ويتميز أحد مستشاريه الروحيين المقربين وهو چيمز روبنسون بحماس للرياضات الدموية يشبه حماس قساوسة ترولوپ الريفيين. والمجلات الموجودة على متن طائرة الرئاسة تشمل «صيد القاروس»، «صيد القوارب»، «أخبار الرياضة». وفى إحدى مرات غياب ديك تشينى الطويلة فى «مكان غير معلن» صدم الأهالى لدى رؤية نائب الرئيس ومن ورائه طابور من رجال المخابرات فى رحلة صيد برى. والساسة فى معظم دول أوروپا يصوبون مسدسًا نحو أى مخلوق يحيط به الزغب حين يتعرض مستقبلهم السياسى للخطر. والأمر ليس كذلك فى تكساس ولا فى البيت الأبيض فى عهد بوش.

المسألة مرة أخرى مسألة موقف. فعبارة «لا تعبث مع تكساس» شائعة فى الولاية؛ وكذلك سياسة بوش الخارجية يمكن تلخيصها فى عبارة «لا تعبث مع الولايات المتحدة». ولطالما تميزت إدارته بنوع من خيلاء تكساس ـ ثقة عميقة بالنفس وعدم اعتبار لما يقوله عنها المتأنقون على الساحل الشرقى من البلاد، ناهيك عن الأوروپيين. وفى الوقت نفسه، فإن لوحة أرقام تكساس على سيارة الرئيس خارج أمريكا تجعل بقية العالم يشعرون بالتحامل ضدها (كسائقى كولورادو قبل عشرين سنة). ولا غرو أن يُعرف بوش باسم «التكساسى السام».

تكساس الأخرى: الدعم الحكومى والمحسوبية

كل هذا يوحى بأن تكساس لها تأثير ذو بعد واحد على النزعة المحافظة لدى الإدارة، ما يجعلها ترتاب فى الحكومة وفى الأجانب وفى الليبراليين. ومع ذلك فكلما تأملت تكساس زادت صورتها تعقيدًا. فهذه الولاية مسئولة عن بعض تناقضات الإدارة وعن سلوك رعاة البقر الذى تنتهج.

أوضح التناقضات الحكومة. فأهالى تكساس بحبهم للحرية، اتخذوا كافة الإجراءات اللازمة لترويض الوحش الحكومى. ومجلس الولاية التشريعى يجتمع مرة

كل سنتين فى جلسة تمتد مائة وأربعين يومًا، ويتلقى المشرعون مبلغًا رمزيًا قدره ٧٢٠٠ دولار فى السنة. والحاكم ليست له سلطة تعيين أعضاء الحكومة. ويتجسد الموقف المعتدل من الحكومة فى شعار: «حارس واحد كاف لحركة تمرد واحدة». إلا أن ولاية «النجمة الوحيدة» تدين بالكثير لواشنطن العاصمة كغيرها من الولايات. فثراء الحكومة الاتحادية ساعد على تحويل ركود الريف إلى وحش تكنولوچى متقدم، بدءًا بالطاقة الكهربائية المستخرجة من الماء فى الثلاثينيات، ثم برنامج الفضاء فى الستينيات، وانتهاءً بالتعاظم العسكرى الضخم حاليًا. وكان السبب فى أن أول كلمة نطقت فوق سطح القمر كانت «هيوستون» هو براعة تكساس فى اللعب بالسلطة السياسية.

تولى سام رايبورن الذى نشأ فى ريف تكساس الوعر على ضفتى نهر غير قابل للملاحة رئاسة مجلس النواب الأمريكى لمدة عشرين سنة - وهى مدة أطول من غيره - وصاغ الكثير من تشريعات «الصفقة الجديدة». وكان ليندون چونسون القادم من ريفها المتخلف أحد أقوى أعضاء مجلس الشيوخ فى تاريخ أمريكا. وبين ١٩٦٤ و٢٠٠٠م أنجبت هذه الولاية التى يقال إنها تناوئ الحكومة ثلاثة رؤساء (چونسون وچورچ بوش وابنه) ومرشحين لمنصب نائب الرئيس (چورچ بوش الأب ولويد بنتسن) وأنجح مرشح للحزب الثالث منذ تيدى روزڤلت (روس پيرو). وبمنأى عن إيمانهم العميق بحرية السوق، فإن ساسة تكساس الجمهوريين لديهم عبقرية فى تجنب الخسارة. فكان فيل جرام، وهو محافظ مالى ظل محتفظًا بمقعده فى مجلس شيوخ چونسون القديم حتى ٢٠٠٣م، يقول: «جسمى به الكثير من لحم الخنزير حتى بدأت أصاب بالترخينة». وكان يقول إنه ما كان ليصوت بالموافقة على برنامج لتصنيع الجبن على سطح القمر، ولكن إذا صدق مجلس النواب على الفكرة سيحاول أن يضمن أن يأتى اللبن من أبقار تكساس، وأن يكون «نظام الملاحة الفضائى» قد تم تطويره بإحدى جامعات تكساس.

وإدارة بوش تساورها الأحاسيس المختلطة نفسها. ويعزف چورچ بوش الابن دومًا نغمة تصغير حجم الحكومة، ولكنه فى الحقيقة ترك الحكومة تتمدد. فزاد حجم الإنفاق الاتحادى لا على الدفاع وحسب، بل أيضًا التعليم وسائر الخدمات الاجتماعية وبمعدلات أسرع كثيرًا عما كان فى عهد بيل كلينتون. وسنعود لميل بوش للتمدد الحكومى بما ينذر بالسوء فى الفصل العاشر.

تبرز بعض هذه الأحاسيس المختلطة فجأة فيما يتصل بالفردية. وهو أمر يقع بالنسبة لأهل تكساس فى قلب شخصية ولايتهم. فمن ذا الذى تتوفر له الجرأة ليواصل الحفر بحثًا عن النفط وهو فى العقد الثامن من عمره سوى فرد طغت عليه فرديته؟ أنجح ساسة الولاية كلهم شخصيات متضخمة، تجمع فى ذاتها بين جاذبية الماضى والمكر وغرابة الأطوار، إنهم أناس من أمثال بوب بولوك وروس بيرو وليندون چونسون العظيم. لكن أهل تكساس يتميزون بمسحة جماعية أيضًا، وهو ما يمكن ملاحظته فى ولائهم المفرط للنظم العسكرية وفرق كرة القدم الأمريكية والجمعيات، وفى التنافس الحاد بين جامعتى الولاية الكبريين جامعة تكساس وتكساس أيه أند إم. وعلى الرغم من نزعتها التجارية، فإن نخبة رجال الأعمال فى تكساس تعد من أكثرها شللية فى البلاد، فهى دائمًا تعمل وراء الكواليس لعمل تصور عن مركز رياضى أو متحف جديد. وهناك تداخل كبير بين نخبة رجال الأعمال والنخبة السياسية فى الولاية. فالساسة لديهم دائمًا عادة الثراء. فانتهى الحال بليندون چونسون بأن أصبح يمتلك بصورة ما أكثر عقود الإعلام ربحًا فى الولاية. وكان بيرو أول ملياردير إعانة اجتماعية فى أمريكا بفضل عقد سمح له بتحويل نظام الضمان الاجتماعى فى البلاد إلى الحاسب الآلى. وتعد صناعة النفط والغاز سيدة رأسمالية المحاسيب.

ومع ذلك فلا ينبغى أخذ هذه الشللية بمعنى العزلة. فتكساس من الناحية الاقتصادية كانت دومًا اقتصادًا قائمًا على التصدير، تصدير القطن أولاً ثم الطاقة وحاليًا التقنية العالية التى تربطها بالاقتصاد العالمى. هذا الحماس من أجل الانفتاح عززته «اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية»، وهو مشروع خططت له عقول تكساسية من كلا الحزبين، ومن أبرزها لويد بنتسن وچورچ بوش الأب، وهو ما ساعد على تحويل حدود الولاية مع المكسيك والبالغ طولها ١٢٥٠ ميلاً من مشكلة مرتقبة إلى فرصة ضخمة. ٧٠٪ من صادرات أمريكا إلى المكسيك تمر عبر تكساس. كما نشأ أكثر من ثلاثة آلاف مصنع تجميع على طول الحدود، وهناك بلدات توأم منها إلپاسو ـ واريز ولاريدو ـ نويڤو لاريدو تتعايش فى تكامل وبينها منفعة متبادلة. وهناك ما يقرب من تسعة آلاف شاحنة تعبر «جسر التجارة العالمى» بين لاريدو وتوأمتها المكسيكية يوميًا.

وهذا الانفتاح ثقافى بقدر ما هو اقتصادى. فلتكساس تراث مخيف من العنصرية ولكن أصبحت اللغة فى العقدين الماضيين ما قد يسميه المحافظون نزعة تعددية ثقافية. ففى لاريدو، أصبح اللاتين حديثو الثراء يقيمون حفلات نضج بناتهم محاكاة لتقليد جنوبى قديم. وفى أوستن، يقوم موسيقيو تيهانو بخلط موسيقى الريف والغرب بالموسيقى المكسيكية. ولا شك أن حزب تكساس الجمهورى أسخن مع المهاجرين من نظيره بكاليفورنيا. فيروى عن بوش أنه قال فى حديث خاص عن المهاجرين غير الشرعيين: «إذا عبروا الحدود فنحن نريدهم».[٩] وكان بوش دائم التردد على المكسيك، ويتحدث الإسپانية بحماس إن لم يكن بطلاقة. وكانت أولى مبادراته الكبرى فى سنة الانتخابات ٢٠٠٤م، إعلان خطة لاستيعاب العشرة ملايين مهاجر غير الشرعيين فى أمريكا وإعطائهم صفة الشرعية.

بزنس أمريكا هو بزنس

إذا كانت تكساس وفرت أفضل مقدمة للنزعة المحافظة عند بوش الابن، فلا بد من التنويه بعاملين كان لهما دور كبير فى تكوينه، وهما التجارة والدين. فالرب وشيطان الجشع شكلا جوهر رئاسة بوش وأسلوبها، ولكن ليس بالسبل التى يشير إليها نقادها.

التجارة بالنسبة للعديد من الساسة شىء ينكفئ عليه المرء. ولكن ليس بالنسبة لچورچ بوش. فهو أول رئيس حاصل على ماچستير فى إدارة الأعمال من كلية الأعمال بجامعة هارڤارد، وعين فى حكومته مديرين تنفيذيين أكثر من أى رئيس آخر. فهو يؤمن بالتجارة إيمانًا كبيرًا. ومديرو الأعمال بالنسبة له هم من يحلون مشكلات العالم وينتجون ثروته. وبوش يؤمن بـ«الإدارة بالأهداف»، وهو رجل يحب أن «يخطط رؤية واضحة وأن يضع جدول أعمال واضحًا» حسب تعبيره فى أثناء حملته الانتخابية، ثم يترك التفاصيل العملية لمرءوسيه.[١٠] وفى تقديمه لمن يعينهم للجمهور لا يثنى على مؤهلاتهم العلمية أو إبداعهم العقلى؛ بل على خبرتهم الإدارية. فعندما قدم مل مارتينيز أول وزير إسكان فى عهده، وصفه بأنه «إدارى ومدير جيد» فإنه لم يكن يذمه بعبارة ثناء رديئة.

وهذا الحماس لصناع المال ليس غريبًا عليه، فهو حفيد صمويل بوش وچورچ واكر.[١١] ويذكر أحد زملاء بوش بالجامعة أن بوش لم يثره حدث سياسى إلا مرة واحدة حين كان بجامعة ييل فى أواخر الستينيات - وهى حقبة شهدت اضطرابات فى كافة جامعات البلاد بسبب حرب ڤيتنام ونشأة الثقافة المضادة. وكانت هذه المرة عندما حدث تغير متوقع فى حصة استخراج النفط يهدد رجال الأعمال النفطيين فى البلاد.[١٢]

وينبغى هنا التمييز بين شيئين، فحماس بوش موجه للتجارة والأعمال لا سيما الأعمال الكبرى لا السوق الحرة. وحياته العملية نموذج أمثل لرأسمالية تكساس الشللية؛ حيث تميزت بسلسلة من الصفقات يدخلها من حين لآخر مستثمرون تربطهم صلات بأبيه لإنقاذ شركة نفط متعثرة بعد أخرى. وكانت شركة «أربوستو إنرچى» أولى تجارب بوش الاستكشافية؛ حيث تم دمجها مع «سپكترام ٧» التى اندمجت فى «هاركن إنرچى». وعلى الرغم من كساد سوق النفط، زادت قيمة أسهم بوش. ففى سنة ١٩٩٠م، باع ٢١٢ ألف سهم من رصيد «هاركن» مقابل ٨٤٨,٥٦٠ دولار لكى يسدد نصيبه المستثمر فى فريق «تكساس رينجرز» لكرة السلة.[١٣] وتم دعم بناء ملعب كرة ضخم جديد فى أرلنجتون عن طريق زيادة ضريبة المبيعات بالمدينة.[١٤]

هذا النوع من الرأسمالية الشللية ليس محصلة الدراسة بكلية الأعمال جامعة هارڤارد بالطبع. إلا أن بوش كان لا يزال يرى نفسه رجل أعمال، وقاعدته دائمًا هى طبقة رجال الأعمال. وكانت تكساس ولاية مثلى لسياسى كهذا، لأن قوانين تمويل الحملات الانتخابية فيها لا تضع حدودًا للتبرعات. ففى حملتيه لمنصب الحاكم فى ١٩٩٤ و١٩٩٨م، جاء أكثر من نصف التبرعات من مديرى مؤسسات (منها تبرعات ضخمة من كن لاى رئيس «إنرون»). واستغل علاقاته برجال الأعمال لإيجاد أنجح آلية لجمع الأموال فى تاريخ الرئاسة. وفى جولته الانتخابية لسنة ٢٠٠٠م، تمكن بوش من جمع ١٩١ مليون دولار مقارنةً بمبلغ ١٣٣ مليونًا جمعها منافسه، الذى كان فى ذلك الوقت نائب الرئيس. وبدأت حملته فى الطيران عاليًا نتيجة لسخاء ٢١٤ من «الرواد» الذين جمعوا ما لا يقل عن مائة ألف دولار لحملته الانتخابية.[١٥] وانتهى الأمر بأن جمع ١٠١ مليون دولار من متبرعين معظمهم من رجال الأعمال. كل هذا

نتج عن كون «لجنة العمل السياسى» بشركة إنرون كانت أكبر متبرع لحملة چورچ بوش الابن الانتخابية. وفى سنة ٢٠٠٠م، أصبح بوش وكارل روڤ يسيطران على نخبة رجال الأعمال فى منطقة حزام الشمس لدرجة أن المسألة كانت ستبدو أبعد ما يكون من الغرابة لو لم تقدم أسرع شركات تكساس نموًا تمويلاً هائلاً. وكانت أكبر الولايات الثلاث تبرعًا لحملة بوش الانتخابية هى تكساس وكاليفورنيا وفلوريدا. وتفوق بوش على آل جور بين رجال الأعمال فى كل ولاية فى البلاد وفى كل قطاع صناعى. بل إنه أخذ ضعف ما حصل عليه جور من أحد أكثر قطاعات عالم الأعمال ليبرالية من الناحية الاجتماعية، ألا وهو قطاع التقنية العالية، فقد كان بوش اختيار رجال الأعمال الأول.

إذا كان المكان الذى تدربت فيه إدارة كلينتون هو الجامعة، فإن المكان الذى تدربت فيه إدارة بوش هو المؤسسة. فما من رئيس منذ أيزنهاور عين أكثر من مدير تنفيذى سابق واحد فى حكومته، علمًا بأن أيزنهاور لم يعين أكثر من اثنين منهم. وبدأ بوش بأربعة هم ديك تشينى (من هاليبرتن) ودونالد رامسفيلد ودون مايڤانز (من شركة «توم براون» للنفط والغاز ومقرها دنڤر) و پول أونيل (ألكوا) وأصبح البيت الأبيض فى عهد بوش متاهة من المصالح التجارية. أندرو كارد رئيس موظفى بوش مدير سابق لچنرال موتورز وكان كبير رجال جماعة الضغط لصناعة السيارات، وكان المتلقى الأول لأموال صناعة السيارات فى جولة ٢٠٠٠م الانتخابية عضو مجلس الشيوخ سپنسر إبراهام، الذى أصبح وزيرًا للطاقة فى وزارة بوش. وكانت آن ڤينيمن وزيرة الزراعة من أعضاء مجلس إدارة شركة (كالجن) الرائدة فى مجال الأغذية المعدلة وراثيًا، والتى اشترتها فيما بعد «مونزانتو» وهى شركة بولاية ميسورى ذات صلة بچون أشكروفت عضو مجلس الشيوخ السابق عن ولاية ميسورى والمحامى العام السابق. بل إن كوندوليزا رايس كانت عضوًا بمجالس إدارة عدة مؤسسات كبرى منها «شيڤرون» التى أطلقت اسمها على إحدى أكبر ناقلاتها. وكان كولن پاول أول وزير خارجية حاصل على ماچستير فى إدارة الأعمال.

وحققت إدارة بوش مسارًا منهجيًا فى السياسات المحابية لرجال الأعمال، كإلغاء الضرائب وتقليص القوانين ومحاولة تسهيل الأمور على رجال الأعمال. وكانت صناعة الطاقة من كبار الفائزين فى هذا المضمار. إذ حصل ديك تشينى على كل

النصائح فيما يتعلق بسياسة الطاقة من مديرى طاقة ومنهم عدد من إنرون. ومارست الإدارة ضغوطًا من أجل التصريح بالحفر فى صحارى ألاسكا، وهو موقف أثار معارضة حامية من كل من نشطاء البيئة والديمقراطيين.

القوادة لرجال الأعمال ليست جديدة على السياسة الأمريكية، ولكن يلاحظ أن عددًا من فترات رئاسة بوش الأكثر ضعفًا نتجت إما عن المحاباة أو مظهرها. فقراره بالسماح بمستويات زرنيخ أعلى فى ماء الشرب أطلق جولة مبكرة من الاتهامات. واتسم رده الأولى على انهيار إنرون بسوء التقدير؛ حيث حاول الإيحاء بأنها مجرد «بضع تفاحات فاسدة»؛ وتجاهل المشكلة المحاسبية فى هاليبرتن التى جاء منها ديك تشينى، وقاوم قانون ساربانس ـ أوكسلى الذى يعمل على تحسين عمل المؤسسات وتدقيق ممارساتها المحاسبية.

رجل الله

فى أثناء حملته الانتخابية لسنة ٢٠٠٠م، سُئل چورچ بوش عن فيلسوفه المفضل، فجاء رده غير المتردد «المسيح، فهو الذى غير قلبى». فالتوبة تقع فى قلب حياة بوش العملية، وفكرة التوبة تتخذ موقع القلب فى سياسته. فأدخل الدين فى رئاسته بحماس يفوق أى رئيس معاصر قبله. كان رونالد ريجان يدعم الكنيسة من بعيد. أما بوش الميثودى الإصلاحى الذى ولد من جديد، فهو دعامة من دعائم الكنيسة، ولديه حماس يشبه حماس من اعتنق دينًا جديدًا أو من عاش حياته بلا دين ثم آمن. كان بوش يعاقر الخمر بكثرة فى شبابه، وكان يشعر بالضآلة إلى جانب أبيه الذى حقق الكثير. وبدا كأنه فشل فى كل ما حاول عمله. وجاءت نقطة التحول فى سنة ١٩٨٦م، حين زار بيلى جراهام أسرته و«قادنى إلى الطريق فبدأت السير» حسب تعبير بوش نفسه. الرجل الذى بدد أربعين سنة من عمره أقلع عن معاقرة الخمر وأصبح آلة سياسية دقيقة. وذات مرة قال لجمع من الزعماء الدينيين: «كان ينبغى أن أكون الآن فى بار بتكساس لا فى المكتب البيضاوى. وهناك سبب واحد لوجودى بالمكتب البيضاوى لا فى البار، وهو أنى صادفت الإيمان، وجدت الرب. أنا هنا بفضل قوة الدعاء». (١٦)

يبدأ بوش يومه بالركوع مصليًا، ويفتتح كل اجتماع وزارى بدعاء. ويتلو فقرة من الكتاب المقدس كل يوم. كما يطالع الصلوات القصيرة التى كتبها أمثال أوزوالد

تشيمبرز عالم اللاهوت الإسكتلندى المولد. ودعا اثنان من جماعته التنفيذية لتحديد يوم قومى للصلاة وشن حرب دينية على العوز. ويلاحظ استعمال بوش مصطلحات دينية فى حديثه، وأحيانًا بطريقة تحرك المشاعر، وأحيانًا أخرى بطريقة تتسم بالدروشة كما حدث حين كان يتحدث عن شن أمريكا «حربًا صليبية» لتصيد أعداءها (وهو تصريح سارع بسحبه). وكاتب خطبه مايكل جيرسون أستاذ فى ترجمة أحاسيس بوش الدينية إلى نثر بليغ ذى مسحة من القرن السابع عشر.

قال بوش فى الأمم المتحدة فى نوفمبر ٢٠٠١م: «نحن على يقين من أن التاريخ لديه كاتب يملأ الزمن والأبدية بغايته. نحن نعلم أن الشر حقيقة، لكن الخير سينتصر عليه». [١٧] وبرر خطته ذات السبعة عشر مليار دولار لمكافحة الإيدز فى العالم بعبارات طنانة مماثلة: «حين نرى وباء يخلف وراءه قبورًا ويتامى بطول قارة وعرضها فعلينا أن نتصرف. حين نرى المسافر الجريح على الطريق إلى أريحا فإننا - أمريكا - لن نعبر إلى الجانب الآخر من الطريق لنتجاهله». [١٨] وهو بالطبع يرى الحرب على الإرهاب «صراع تاريخى بين الخير والشر». وفى الحادى عشر من سبتمبر قال للشعب الأمريكى: «اليوم رأى شعبنا الشر». وفى خطاب حالة الاتحاد فى ٢٩ يناير ٢٠٠٢م أشار إلى «محور الشر». ويشير إلى الإرهابيين من حين لآخر بكلمة «الأشرار». وليس هناك زعيم غربى آخر يصور القضية كما يصورها هو. وفى أغلب الحالات نجد إشاراته إلى الدين مستترة. وتأمل بروس لينكولن وهو من علماء الكتاب المقدس إلى خطاب بوش الذى أعلن فيه بدء العملية العسكرية على أفغانستان، فوجد ثلاث كلمات من كلماته التسعمائة والسبعين دينية بصورة لا لبس فيها، لكن إذا نظر للخطاب متمرس بالكتاب المقدس، لوجد الكثير من الصور والإيماءات التوراتية من نصوص كسفر الرؤيا. [١٩](*)

كما نجد تأثير الدين منتشرًا فى البيت الأبيض. فكانت أولى الكلمات التى سمعها ديفيد فرام لدى دخوله البيت الأبيض للعمل ككاتب خطب «افتقدناك فى درس

(*) سفر الرؤيا، أو رؤيا يوحنا، هو آخر أسفار العهد الجديد، وكما يدل اسمه، فهو حلم رآه يوحنا عن نهاية الزمان والمجىء الثانى للمسيح، ومعركة هارمجدون التى يبلغ الدم فيها ارتفاع ألجمة الخيل، ولمسافة ٣٢٠كم، والتى يفسرها المتطرفون والأصوليون المسيحيون بأنها حرب نووية، ويسعون لها حتى يجىء المسيح.

الكتاب المقدس». [٢٠] وفى كتابه عن بوش بعنوان «The Right Man» يبين فرام، وهو مثقف يهودى دنيوى، أنه كان دائم الاندهاش من بعض كبار البروتستانت الإيڤانجليكيين. ويدخل رجال بوش البيت الأبيض بالقدسية التى يدخلون بها الكنائس. فهو مكان يرتدى رواده أربطة العنق والبزات السوداء دائمًا ولا تلفظ فيه أبسط كلمات التعبير عن الغضب والحديث فيه بصوت خافت، وتتعهد فيه بالكتمان إلى الأبد كما يفعل القس فى جلسات الاعتراف.

والعديد من مستشارى بوش لهم روابط دينية. كوندوليزا رايس ابنة كاهن مشيخى. وأندرو كارد متزوج بكاهنة بالكنيسة المنهجية. وكارن هيوز شيخة فى كنيسة مشيخية وتلقب بـ «النبية». وكان دون إيڤانز يحضر دروس الكتاب المقدس مع بوش حين كان فى ميدلاند. وحين وجد بوش وحاشيته أنفسهم يقضون أحد السعف فى سنة ٢٠٠٢م على متن طائرة الرئاسة (كانوا عائدين من رحلة إلى إلسلڤادور) اقترح بعض أعضاء الحكومة إقامة قداس دينى ارتجالى، فانحشر أربعون من المسئولين فى غرفة المؤتمرات بالطائرة. وأمت القداس رايس الموسيقية الموهوبة، وتلت هيوز فقرة الكتاب المقدس. وانتهى المشهد كله بترديد أنشودة «صلاة الشكر على النعم» وبأحضان وقُبل بين الجميع تعبيرًا عن الأخوة المسيحية. [٢١]

وبالبيت الأبيض موظف مسئول عن «التواصل المسيحى» هو تيم جيوجلاين، أى تذكير الناخبين المسيحيين بأن الرئيس يشاركهم قيمهم. كما أسند الرئيس لأمة اليمين المسيحى أدوارًا مهمة فى إدارته. فتولت كاى كولز چيمز منصب مدير إدارة شئون العاملين، وهو موقع يشرف صاحبه على القوة العاملة على المستوى الاتحادى كله، وهى العميد السابق لكلية الحكم بجامعة پات روبرتسون، وهى إحدى أبرز معارضى الإجهاض فى البلاد. ويحمل كل من كلود ألن ووید هورن لواء تعليم العفة والنهوض بالزواج بوزارة الصحة والخدمات الإنسانية. وكان هناك بالطبع چون أشكروفت المدعى العام السابق الذى شغل أعلى منصب يشغله أى من أعضاء اليمين المسيحى، فوزارة العدل هى الجهة التى تأول إليها فى النهاية قضايا كالإجهاض وعقوبة الإعدام والحقوق المدنية واختيار القضاة. ولم تكن لدى أشكروفت ابن وحفيد كهنة العَنصرة «طائفة الخمسينية ـ Pentacostal» أية تحفظات على مزج الدين بالحياة العامة، فكان

يدهن نفسه بالزيت (وماركته المفضلة «كريسكو») قبل أية مهام خطيرة، ويعقد جلسات صلاة يومية بمكتبه بوزارة العدل. وفى يونيه ٢٠٠٣م، منع موظفيه من إقامة احتفالات شاذة.

ولكن إذا كان بوش شديد الحماس لحشد اليمين المسيحى، فإنه يحذر الوقوع تحت سيطرته. فالدين قد يهيمن على البيت الأبيض فى عهد بوش، ولكن حين يأتى الأمر لوضع السياسات، نجد التدين أقل حضوراً. فهذه مسألة إستراتيجية سياسية فى جزء منها. والإيمان بالله ميزة سياسية فى بلد يعلن ٨٥ ٪ من سكانه إيمانهم بمعتقد دينى ما. ولكن ما إن تعلو نغمة التدين، فإنه سرعان ما يتحول إلى عائق سياسى. فحظر الإجهاض ليس الرد المناسب لكل الحوامل، ولا الجهر بضرورة خضوع الزوجات لأزواجهن (كما حدث فى «المؤتمر المعمدانى الجنوبى»). ومن أكثر اللحظات إحراجًا فى أثناء مؤتمر الجمهوريين فى سنة ٢٠٠٠م من وجهة نظر كارل روف، كانت حين حنى مندوبو تكساس جميعًا رءوسهم يرددون الصلوات عندما اعتلى أحد الشواذ المنصة ليلقى كلمة.

ووجه بوش كثيراً من طاقته لتوسيع تعريف معنى «اليمين المتدين» من الإيفانجليكيين الجنوبيين إلى شىء أكثر عالمية. (مما يذكر أن بوش من أتباع الكنيسة المنهجية الجنوبية الأكثر تشدداً مقارنةً بالكنيسة الأسقفية التى يتبعها أبوه، ولكنه أكثر اعتدالاً بكثير من چيرى فالويل والمعمدانيين الجنوبيين.) وأكبر غنائمه من الأصوات كانوا الكاثوليك الرومان، وهم أكبر طائفة دينية فى البلاد وأنضجها للقطاف؛ حيث فاز بأصوات أغلبية من الكاثوليك النشطين دينيًا فى سنة ٢٠٠٠م فيما يعد أكبر ما حظى به مرشح جمهورى للرئاسة منذ ١٩٨٤م. وقام باستعراض كبير بزيارته كبريات المؤسسات الكاثوليكية، كجامعة نوتردام فى إنديانا. ويقيم البيت الأبيض مؤتمراً أسبوعيًا مع مجموعة غير رسمية من المستشارين الكاثوليك، وتم إحياء «اللجنة القومية الجمهورية» كجهة كاثوليكية قوية. ويحاول بوش أن يستعمل عبارات كاثوليكية شائعة من قبيل «ثقافة حياة» فى خطبه. ويحاول، فى الدوائر الكاثوليكية على الأقل، أن يخفف من غلواء موقف حزبه المعادى للحكومة؛ لأن الناخبين الكاثوليك أكثر حماسًا للفعّالية الحكومية من الإيفانجليكيين الجنوبيين. وكانت أفضل فرص فوز بوش بكل من

پنسلڤانيا وميتشيجان اللتين خسرهما بفارق ضئيل فى سنة ٢٠٠٠م، تكمن فى استقطابه الكاثوليك من ذوى الياقات الزرقاء.

كما حاول بوش تجاوز المسيحيين إلى غيرهم من «أمة الإيمان». فحقق نجاحًا كبيرًا مع اليهود، ولو أن هذا كان نتيجة لسياسته الخارجية. أما محاولته استقطاب المسلمين فكانت أخف. فبعد وصوله البيت الأبيض بقليل، دعا أحد أئمة المسلمين لبدء برنامج المبادرات القائمة على أسس إيمانية، وعين مسئولاً للتعامل مع العرب المسلمين، وأدرج كلمة «مساجد» فى قائمة المؤسسات الدينية فى خطابه. وأخذ هذا التقارب منحى مختلفًا بعد أحداث ١١ سبتمبر بالطبع، لكن بوش لا يزال يرفض مطالب الأصوليين البروتستانت بحرمان الهيئات الإسلامية الحق فى المنح الحكومية.

وماذا عن سياساته؟ إن الرأى الذى يرى أن معتقدات بوش الدينية أفسدت سياسته الخارجية يعد مسألة معقدة، لأنه يتشابك مع كافة أنواع نظريات المؤامرة عن المحافظين الجدد (وهو ما سنتطرق إليه فى الفصل الثامن). وإذا نظرنا إلى سياسة بوش الداخلية نلاحظ أن تأثير السياسة الواقعية البحتة أكبر من تأثير القناعات الدينية.

وسرعان ما تكشف البرنامج الذى نبع من تدين بوش ـ النزعة المحافظة الرحيمة ـ مباشرةً. ففكرة الحلول «القائمة على الإيمان» للمشكلات التى استعصت على دولة الرفاهية، قدمت طريقة لاستقطاب الكاثوليك والزنوج إلى التحالف الجمهورى. ولكنها أخفقت مع ذلك. وكان جزء من المشكلة يكمن فى اختيار بوش للقائد، إذ أثبت چون ديلوليو أن العقلية العلمية الرفيعة ـ فهو أستاذ بجامعة پنسلڤانيا ـ لا تؤدى بالضرورة إلى إعدادك للعيش فى عالم الجناح الغربى الميكيافيلى. وفى الوقت نفسه كانت كثرة من أعضاء مجلس النواب ـ ليبراليين وغير ليبراليين ـ تعارض أى شىء يتعدى على مبدأ فصل الدين عن الدولة. إلا أن ديلوليو تمكن من استثارة الإيڤانجليكيين البيض بتوجيه أموال لكنائس الزنوج واللاتين.[٢٢] وتراجع كل من بوش وروف بسرعة، فعقدا اتفاقًا من وراء ظهر ديلوليو يقضى بمنح كنائس البروتستانت إعفاء من القوانين الاتحادية الخاصة باستخدام العمالة (والتى كانت سترغمها على استخدام الشواذ). فقدم ديلوليو استقالته فى أغسطس ٢٠٠١م وأهمل المشروع فى هدوء.

وفيما يتعلق بالإجهاض، كان من بين أولى الإجراءات الأولى التى اتخذها الرئيس خفض المخصصات المالية المقدمة للهيئات التى تبيح الإجهاض فى الخارج. أصبح هذا جزءًا من مسار أى رئيس جمهورى يأتى من بعده، وعذر لعدم الإقدام على أى تصرف فى الداخل بقدر ما هو مسألة صلاح أخلاقى فى الخارج. وتعمد استعمال لغة دينية فى دعوته لحظر الاستنساخ («الحياة خَلق لا سلعة»)، ووقع مشروع قانون يحظر إجهاض الولادة الجزئية فى نوفمبر ٢٠٠٣ واضعًا بذلك نهاية لـ «نمط مخيف من العنف». إلا أن معظم الأمريكيين يعارضون إجهاض الولادة الجزئية ويساورهم القلق من الاستنساخ. وحين برزت مسألة أبحاث الخلايا الجذعية، فإنه بالطبع عارض الصناعة التقنية الحيوية بفرض قيود عليها، إلا أن هذه القيود كانت أقل أصولية مما كان يتطلع إليه اليمين المسيحى. وعين مسيحيين إيڤانجليكيين فى مناصب قضائية، ولكنه فيما يتصل بأكبر المناصب على الإطلاق، أى تعيين قضاة المحكمة العليا الذين كانوا سيسقطون حكم قضية «روى ضد ويد» تراجع بوش ولجأ للمراوغة بتعيين القضاة «الذين يحترمون الدستور».

كان بوش أجرأ كثيرًا فى دعم الفكر المسيحى حيثما قلت احتمالات أن تعود عليه مبادئه الدينية بالخسارة فى أصوات الناخبين ـ كما فى مجال «تعليم العفة». هنا نجده يدرك تمامًا المزحة القائلة إن صاحب النزعة الاجتماعية المحافظة ما هو إلا ليبرالى عنده بنت فى المرحلة الثانوية. فأخذ بوش يوجه مخصصات مالية ضخمة إلى تعليم المراهقين والمراهقات فضائل العذرية، بل إنه وجه هذه المخصصات إلى أكثر أشكال هذه العقيدة تشددًا فيما عرف باسم «برامج سپرانز» (مشروعات خاصة ذات أهمية إقليمية وقومية) التى تعلمهم أن الجنس خارج نطاق الزواج قد تكون له أضرار نفسية وجسمانية، وترفض الترويج لاستعمال الواقى الذكرى. ويتوق بوش لنشر رسالته فى الخارج. وخصصت إدارة بوش لتعليم العفة ثلث المبالغ التى سبق أن خصصت للوقاية من الإيدز فى العالم النامى. وبالطبع أثار هذا التصرف غضب مؤسسات المعونة ولكنه لم يكلف بوش شيئًا فى الداخل. بل على العكس، فحين سعى الإيڤانجليكيون للحيلولة دون منح الصين مرتبة الدولة الأولى بالرعاية تجاريًا، سارع بوش لنصرة جماعات رجال الأعمال.

ومن الأمثلة الأخرى على نصرة بوش للأغلبية، زواج الشواذ، ولو أنه قد يكون هنا على أرضية أكثر خيانة. فبندائه فى فبراير ٢٠٠٤م بإجراء تعديل دستورى يقصر الزواج على زوجين متباينى الجنس، اتخذ الرئيس جانب ثلثى الأمريكيين ممن يعارضون زواج الشواذ. إلا أن القضية أعقد مما قد يبدو لأول وهلة؛ فالأمريكيون أكثر تسامحًا مع فكرة الزيجات المدنية والتى قد يعطلها أى حظر اتحادى، والكثير من الناس حتى فى الحزب الجمهورى لا يحبذون فكرة محاولة تغيير الدستور. والحقيقة أن «القضاة النشطون» (كما يحب أن يسميهم بوش) كانوا أول من دفع الرئيس إلى اتخاذ موقف فى ماساشوستس، الذين أمروا الولاية بالبدء فى التصريح بزواج الشواذ، وأعقبهم حاكم سان فرانسيسكو جاڤن نيوسم الذى تجرأ وأصدر تصاريح لآلاف عدة من الشواذ. وفى ظل تربص المحافظين الاجتماعيين، لم يكن أمام بوش من بديل سوى مساندة التعديل مستنتجًا ولا شك أن السياسى الوحيد غيره الذى لديه ما يخسره هو چون كيرى.

رئيس أمريكى خالص

فى كل هذه المناورات الدقيقة، يقف بوش على أرضية مألوفة تمامًا بالنسبة لسائر الساسة الجمهوريين الذين يناورون فى مسألة الإجهاض. كما أن تدينه لا يبدو مستغربًا فى بلد يؤمن ٦٠ ٪ من سكانه أن لله دورًا مهمًا فى حياتهم، ويصف ٣٩ ٪ من الناس أنفسهم بأنهم «مولودين ثانيًا» وثلث الناخبين المسجلين من البروتستانت الإيڤانجليكيين البيض.[٢٣] وفى الستينيات، وجد معهد جالوپ أن ٥٣ ٪ من الأمريكيين يؤمنون بضرورة عدم تدخل الدين عن السياسة. وفى سنة ١٩٩٦م تبين أن ٥٤ ٪ لا يجدون غضاضة فى أن تتكلم الكنيسة فى السياسة.[٢٤]

ولا غرابة فى أن يلقى تدين بوش استغرابًا أكبر فى أوروپا التى يتردد على الكنائس فيها بانتظام ما لا يزيد عن واحد من بين كل خمسة، وحيث يندر وجود المسيحيين المولودين ثانيًا بها. ويقال إن تونى بلير، وهو شديد التدين، لم يدر ماذا يقول حين طلب منه بوش أن يركع على الأرض ليصلى معه. وذات مرة حاولت ألاستير كامپل سكرتيرة بلير الصحفية السابقة الشرسة أن تخيف صحفيًا من «ڤانيتى فير» من مناقشة

تـدين رئيـس الوزراء بـرد حـاسم قائـلة «نـحن لا نعمل مع الله». أما بوش فيتعامل بكل تأكيد.

وكلما أمعنت النظر فى سيرة بوش ومعتقداته ـ تكساسيته وحبه للتجارة والأعمال وتدينه ـ زاد إدراكك لمشكلة المتفائلين ممن يتشبثون بأن الصدع الحالى فى التحالف عبر الأطلنطى حالة مؤقتة من صنع رئيس «غير تقليدى». فالتكساسى السام ورجل الأعمال المتدين الذى يذهل الأوروبيين بغرابة أطواره، لا يبدو غريبًا على الإطلاق فى عيون معظم الأمريكيين.

* * *

الفصل السادس

الضفة اليمنى

ليس هناك شيء اسمه رأى عام عفوى. فكل شيء يجب أن يكون مصنّعًا فى «مركز للإقناع والطاقة»[1] . . .

قد يتصور المرء أن تكون هذه العبارة مقتبسة عن ديك تشينى فى واحدة من لحظاته العفوية، أو صدرت عن دونالد رامسفيلد وهو يغمغم عن العراق. لكن العبارة صدرت فى الحقيقة عن بياتريس وب أحد مؤسسى «الجمعية الفابية». وباعتبارها الناطق بلسان الاشتراكية البريطانية فى أعلى حالاتها الذهنية، فالجمعية الفابية ليست اسمًا مما يُستدعى إلى واشنطن چورچ بوش الابن. ومع ذلك فالجمعية تقدم مثالاً للأسلوب الذى أثر به الفكر المحافظ على رئاسة بوش.

أسس الفابيون، وهم جماعة من المثقفين، تنظيمهم فى سنة ١٨٨٤م. وضمت صفوفهم سيدنى وبياتريس وب، وإتش. چيه. ولز، وچورچ برناردشو. وكان هدفهم إحلال «الرفاهية الجماعية» محل «التكالب على المكاسب الخاصة»، وكان الأسلوب الذى اختاروه «الاختراق». ولم يكونوا يؤمنون بقلب المجتمع رأسًا على عقب كالماركسيين، ولم يكن همهم الفوز بالانتخابات كحزب العمال الذى ساعدوا فى تأسيسه. والحقيقة أنهم حاولوا ألا يربطوا أنفسهم بحزب بعينه. وكانوا يتمنون للاشتراكية أن تحل تدريجيًا بإلباس الجماعية رداء الفطرة السليمة ومد السيطرة الحكومية على مؤسسة تلو الأخرى.

كان الأهم بالنسبة للفابيين تغيير مناخ الرأى بحيث يتخذ كل ما يدخل البرلمان مسارهم. صرح سيدنى وب ذات مرة قائلاً: «لا شىء يتم فى إنجلترا بدون رضا طبقة فى لندن مثقفة صغيرة ولكنها عملية، لا يزيد تعداد أفرادها عن ألفين». وكان هدف الجماعة الأول التأثير فى تلك الطبقة، ولكنها أفلحت فى صوغ عقول أناس أقل أهمية. وكانت النشرة الفابية من سماتهم المميزة، وأنشأوا نشرات من قبيل «رجل الدولة الجديد ـ New Statesman » وكانوا يحددون جدول أعمال لعدد من اللجان البرلمانية وأنشأوا «مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية».

كما ساعد الفابيون فى ترسيخ فكرة أن الاشتراكية أسلوب حياة مثير وليست مجرد عقيدة سياسية. وأنشأوا شبكة من «الجماعات» ـ جماعة المرأة وجماعة الفنون وجماعات للتعليم والأحياء والحكم المحلى. وكان من أنجح هذه الجماعات جماعة «التنشئة» وكان قوامها فتيان وفتيات بوهيميين اتخذوا من الخليع إتش. چيه. ولز مثلهم الأعلى. وكان لجماعة التنشئة جانب اجتماعى. يصف إدوارد بيز أمين جماعة الفابيين هذه الجماعة بقوله: «التنشئة ليست قاصرة على الاقتصاد والسياسة بالطبع، فللرحلات والرقص مكان فيها أيضًا. وبعض أعضائها يتزوجون فيما بينهم، وليس هناك ما هو أضمن للسعادة الدائمة فى الزواج من المشاركة فى قضايا الحياة الكبرى».

وكان تأثير الفابيين طويل المدى. فوضع سيدنى وب مسودة المادة ٤ من دستور حزب العمال والتى تلزم الحزب «بالملكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل». ولم يلغ حزب العمال المادة ٤ إلا فى تسعينيات القرن العشرين. وخرَّجت المؤسسات الفابية، كمدرسة لندن للاقتصاد، خبراء يؤمنون بالقوة السحرية للبيروقراطية؛ وساعدت نشرة «رجل الدولة الجديد» فى صوغ فكر الساسة لعشرات السنين.

كان الفابيون فى بعض الجوانب ظاهرة بريطانية متميزة. وفى جوانب أخرى كانت الفابية قالبًا لشىء أكثر عالمية. فعملت جماعات المثقفين فى أرجاء أوروبا على ترسيخ فكرة أن الاشتراكية موضة المستقبل، وعملت جماعات النشطاء على تعريف الاشتراكية لا باعتبارها مجرد مجموعة أفكار بل كمجتمع. وتمخضت هذه الجهود عن «الحركة الاشتراكية» وهى أيديولوچيًا وفى الوقت نفسه جماعة أخوة، مجموعة معتقدات تنظم حياة الناس من المهد إلى اللحد، عقيدة تمارس ضغطًا متواصلاً على المعتدلين، وتنزل انتقامًا رهيبًا بالخونة.

وإذا طالعنا مذكرات أى سياسى أوروبى يسارى، فسنجد حكاية عن راديكالية طلابية واجتماعات نقابية ومسيرات لا تتوقف ضد القنبلة الذرية وفيتنام والتفرقة العنصرية، ومآدب غداء مع محررى صحيفة لوموند أو مانشستر جارديان، وقرارات مركبة فى الاجتماعات الحزبية، وعشرات الوجبات التى كان كل من يحضرها ـ من ساسة وصحفيين ونقابيين وأكاديميين وأزواج أو عشاق ـ يرى نفسه جزءًا من قضية واحدة كبرى. وحين دخل فرانسوا ميتران أو هيلموت شميت أو دنيس هيلى الحكومة اكتشفوا أن المثل غير عملية فى أغلبها، وأن عليهم أن ينحوها جانبًا إلى حين (وعادة ما كانت هذه الخيانة تدفع جيلاً آخر بالانضمام لليسار). ولكنهم كانوا فى الحقيقة واعين بالحركة وبأهمية المثل. وتظل «الضفة اليسرى» لنهر السين المأوى التقليدى لمثقفى باريس اليساريين قوة كامنة فى السياسة الفرنسية إلى يومنا هذا.

ورئاسة جورج بوش الابن لها الصلة نفسها بـ «الضفة اليمنى». وعلى مدار الثلاثين سنة الماضية، أصبحت حركة المحافظين مؤسسة. قد لا يزال اليمين يرى فى نفسه الخاسر الضعيف الذى يصرخ ضد قوى الليبرالية (هذا الظن من مصادر قوته)، إلا أن هذه الصورة عن الذات مغلوطة دون شك. فهؤلاء المثقفون الغاضبون وهذه المراكز المرتجلة وهؤلاء المتبرعون غريبو الأطوار ـ أى من رسمنا صورة لهم فى أوائل هذا الكتاب ـ كادوا يصبحون مؤسسة كالمؤسسة الليبرالية التى تحمس لها چون كينيث جالبريث فى ستينيات القرن العشرين. فهم يمدون إدارة بوش بالسياسات والناس والتنظيم، ولديهم القدرة على بث رسالتهم بطول البلاد وعرضها عبر وسائل إعلام محافظة نشطة. وفوق هذا وذاك يبدو أنهم كسبوا معركة الأفكار.

١١٥٠ شارع ١٧

المكان المناسب للتعرف على هذه المؤسسة يقع فى ١١٥٠ شارع ١٧، وهو مبنى إدارى عادى فى واشنطن العاصمة. والعنوان هو «مركز الإقناع والطاقة»؛ وهو فى الحقيقة يحوى طاقة عقلية محافظة تفوق ما تحويه دولة أوروبية متوسطة.

فى الطوابق العاشر والحادى عشر والثانى عشر، نجد صديقنا القديم «معهد الأعمال الأمريكى لأبحاث السياسة العامة». ومع تاريخه المجيد، فإن المعهد فى أوج مجده

حاليّا. فأكثر من دستة من قدامى أعضائه تم تعيينهم فى مناصب فى إدارة چورچ بوش الابن، ومنهم ديك تشينى (وزوجته عضو بمجلس إدارة المعهد) وپول أونيل، أول وزير خزانة فى إدارة بوش، وجلين هوبارد أول رئيس لـ «مجلس المستشارين الاقتصاديين». ويتولى ليون كاس رئاسة «مجلس الأخلاقيات الحيوية». وكان لارى ليندسى يتولى رئاسة «مجلس المستشارين الاقتصاديين» التابع للرئيس فى العامين الأولين من توليه الرئاسة (وساعد بوش فى خفض الضرائب فى سنة ٢٠٠١م). ويعد كيڤن هاسيت أحد أنشط المؤيدين الخارجيين لخطط الإدارة لخفض ضرائب المؤسسات؛ وساعد على إعادة صوغ الخفض الضريبى لسنة ٢٠٠٣م. وداڤيد فرام كاتب الخطب الذى أسهم فى صك عبارة «محور الشر» عضو بالمعهد حاليّا. وريتشارد پيرل الرئيس السابق لـ «مجلس السياسات الدفاعية» عضو بالمعهد أيضًا منذ سنوات. وفى أثناء مقابلة أجراها أحدنا مع كريس ديموث رئيس «معهد الأعمال الأمريكى» اتصل به هاتفيّا اثنان من وزراء الحكومة.

وفى الطابق الخامس تقع «ويكلى ستاندارد ـ Weekly Srandard»، وهى أكثر المجلات الأسبوعية تأثيرًا فى واشنطن فى عهد چورچ بوش الابن. وربما كان توزيعها محدودًا نسبيّا بما لا يتجاوز ٥٥ ألف نسخة مقارنةً بـ ١٥٤ ألف لمجلة ناشيونال ريڤيو، و٨٥ ألف لمجلة نيو ريپبلك، و١٢٧ ألف لمجلة ناشن، إلا أنها تجتاز اختبار فى الوصول إلى «طبقة المثقفين الصغيرة العملية» التى تدير البلاد. ويرسل ديك تشينى من يأتيه بثلاثين نسخة منها كل يوم إثنين.[٢] وتتبع المجلة خطى تراث طويل من المجلات المحافظة، فتبشر بفضائل الرأسمالية دون أن تحقق أرباحًا (فهى تعود على صاحبها روبرت مردوك بخسارة تقدر بأكثر من مليون دولار سنويّا). ومما يحسب للمجلة أنها حققت ما لها من تأثير بالطريقة القديمة ـ أى من خلال قوة المثقفين لا بالمتاجرة بالنفوذ. ويعتبر بيل كريستول مؤسس المجلة ورئيس تحريرها شخصية غير مقبولة عند آل بوش؛ حيث اعترض طريقهم مرتين، مرة بالعمل كبؤرة لسخط المحافظين على إدارة بوش الأب (حين كان رئيس موظفى دان كويل) ومرة أخرى بتأييد چون ماكين كمرشح للجمهوريين. ومع ذلك فالمجلة تحفل كل أسبوع بما يرضى المحافظين من قبيل حث ماكس بوت لأمريكا على تحمل عبء الرجل الأبيض (أو ما يفيد هذا المعنى) إلى تحليل كريستوفر كالدويل لانتشار معاداة السامية فى أوروپا.[٣]

و«معهد الأعمال الأمريكى» ومجلة «ويكلى ستاندارد ـ Weekly Srandard» حاملا الراية فى ١١٥٠ شارع ١٧ ولكنهما ليسا وحدهما. إذ يدير بيل كريستول «مشروع القرن الأمريكى الجديد» من مكتبه. وفى الطابق الخامس أيضًا «المائدة المستديرة لحب الإنسانية» التى توجه المحافظين لكيفية التبرع بأموالهم. تأسست «المائدة المستديرة» على يد المتبرعين المحافظين الساخطين فى أواخر سبعينيات القرن العشرين، وتتباهى حاليًا بأعضائها الستمائة. وساندت «المائدة المستديرة» التنظيمات التطوعية ضد بيروقراطيات إعانة البطالة الخرقاء، قبل أن يظهر جورج بوش الابن بنزعته المحافظة الرحيمة بمدة طويلة. وكثيرًا ما تنضم «المائدة المستديرة» إلى «مركز أبحاث الرأسمالية» المجاور فى مضايقة المؤسسات الليبرالية حول «نية المتبرعين»: هل كان البارون اللص الذى أسس مؤسستكم يقصد أن يدعم فن أداء السحاقيات؟

وربما كانت مؤسسة «وبز» المشربة بالروح القتالية تقدر الطريقة التى تصرف بها ١١٥٠ شارع ١٧ كحاضن لسياسة إدارة بوش فى العراق؛ ففى الأول من ديسمبر ١٩٩٧م، اشترك كل من بيل كريستول وروبرت كاجان فى كتابة افتتاحية مجلة ستاندارد تحت عنوان «صدام لا بد أن يرحل». وفى ١٩٩٨م أرسل «مشروع القرن الأمريكى الجديد» رسالة لبيل كلينتون تحضه على اتخاذ مجموعة من الإجراءات الديبلوماسية والعسكرية للإطاحة بصدام. واشتملت قائمة الموقعين كل من دونالد رامسفيلد وبول ولفوويتز. وفى الوقت نفسه، قدم «معهد الأعمال الأمريكى» الأرضية اللازمة لعدد من أكثر الصقور عدوانية؛ حيث أصدر نشرات عن التحول الديمقراطى فى الشرق الأوسط واستضاف لقاءات عن «الدول المارقة». وأى شىء أوقع من أن يقرر جورج بوش الابن التعهد بالتحول الديمقراطى فى الشرق الأوسط، فى مأدبة عشاء ضخمة يقيمها «معهد الأعمال الأمريكى» فى فبراير ٢٠٠٣م؟ ووعد الرئيس بأن العراق الديمقراطى «سيصبح نموذجًا ملهمًا للحرية بالنسبة لسائر دول المنطقة». وكان المقطع الوحيد من كلمة الرئيس الذى تمت تحيته بصمت مطبق، اقتراحه المتردد بضرورة أن يتوقف الإسرائيليون ـ فى وقت ما ـ عن التوسع الستيطانى فى الأراضى الفلسطينية. وبعد أقل من شهر، بدأت الحرب على صدام حسين، والتى ظل ١١٥٠ شارع ١٧ يحض عليها لمدة عشر سنوات تقريبًا.

إن وجود ١١٥٠ شارع ١٧ يدل على مدى تأثير الفكر فى رئاسة بوش. لكن هذا ليس معناه إنكار أن البيت الأبيض فى عهد بوش أقل عقلانية منه فى عهد سلفه. ففى عهد بيل كلينتون، كان ١٦٠٠ شارع پنسلڤانيا أشبه بحجرة جامعية لاستراحة الأساتذة منه إلى مشروع حكومى؛ إذ تباهى بوجود ستة علماء من رود أيلند (منهم الرئيس) وثلث الخمسمائة والثمانية عشر ممن عينهم كلينتون أول ما عين من دارسى هارڤارد أو ييل، فى حين كان اثنان فقط من أعضاء حكومة چورچ بوش الابن الأربعة عشر الأصليين من خريجى جامعات «القمة»، ولم يكن هناك عقول متميزة بأية معايير أكاديمية تضاهى لارى سمرز أو روبرت روبن.[٤] فالعضو الأثير لبوش القلب لا العقل، ومن أبغض الناس عنده ستروب تالبوت معاصره من خريجى ييل الذى قضى عمره منكبًا على درس الكتب وحضور المحاضرات ولم يقض حياته ينافس زملاءه فى مصارعة لى الأذرع. بالمباينة، كان كلينتون يحب تالبوت.

ومن البداية، رأى بوش أن المثقفين المحافظين قد يفيدون ـ بقدر ما قد تكون إدارة البحث والتطوير مفيدة لمدير تنفيذى. فكانت خبرته التكوينية فى واشنطن أن يشاهد إدارة أبيه وهى تتفسخ بسبب غياب الرؤية. وحين كان بوش حاكمًا لتكساس، ضمن كارل روڤ انخراط رئيسه فى العمل فى الجدل الدائر حول السياسة القومية، فعرفه على كتابات القس چيمس ويلسون وكتّاب أصغر وأشد حماسًا من أمثال مارڤن أولاسكى ومايرون ماجنيت. وحين أصبح رئيسًا، حرص بوش على نثر بضع مفكرين بين المديرين التنفيذيين السابقين الوجهاء: فكانت كوندوليزا رايس رئيس جامعة ستانفورد؛ وچون ديلوليو الذى أدار مكتبه للمبادرات المؤسسة على الإيمان، عالم اجتماع بارز (ومن تلاميذ چيمس ويلسون). والأفكار الكبرى التى استهل بوش بها رئاسته ـ تخفيضات الضرائب وإصلاح التعليم والحركة المحافظة الرحيمة والدفاع الصاروخى ـ كانت كلها فى حالة تخمر لعشرات السنين فى بقاع مختلفة من «الضفة اليمنى».

ومن مقاييس أهمية الأفكار، عدد الإشتراوسيين الكبير فى واشنطن فى عهد چورچ بوش الابن. فيجتمع ما يقرب من ستين من أتباع الفيلسوف شتراوس سنويًا ويقومون

برحلة فى الرابع من يوليه. بول ولفووتيز نائب وزير الدفاع من تلاميذ ألان بلوم وهو أحد كبار أتباع شتراوس. ومن الإشتراوسيين الآخرين أبرام شولسكى مديرمكتب البنتاجون للمشروعات الخاصة، وچون والترز قيصر الأدوية، وليون كاس رئيس «مجلس الأخلاقيات الحيوية» التابع للرئيس. ولا أحد يدعى أن بوش الرجل الذى يرى جامعة ييل كمباراة فى الشراب (كاد يكسبها) يقضى أمسياته يطالع «محاورات زينوڤون السقراطية» لشتراوس. ولكنه يعرف أهمية من يفعلون ذلك.

وفى قلب إدارة البحث والتطوير فى عهد بوش، تقع منتديات فكر اليمين. فعلى بعد خطوات من مبنى مجلس النواب، تقع مؤسسة «هيريتدج» ذات الثمانى طوابق، والدخل السنوى الذى يقدر بثلاثين مليون دولار، وتستخدم حوالى مائتين من العاملين، وتعقد حوالى سبعمائة محاضرة وحوار ومؤتمر كل سنة. وفى ٢٠٠٣م، زادت «هيريتدج» حجم مقرها بكاپيتول هيل إلى أكثر من الضعف. ويشتمل موقعها الجديد على شقق للمقيمين والأعضاء وقاعة تضم ٢٥٠ مقعداً ومركزاً رياضيًا ـ كلها لخدمة ما سماه چون أشكروفت «العمل الرائع لخدمة الحقيقة، والنابع من مؤسسة هيريتدج». ويبشر معهد كاتو بمبادئ الفكر التحررى من مبنى زجاجى مذهل على ناصية شارعى ماساشوستس و١٠. وكان لـ «مركز الدراسات الإستراتيچية والدولية» الذى أنشأه أعضاء «معهد الأعمال الأمريكى» السابقون دور فى رسم السياسة الخارجية لإدارة بوش ـ كما فعل «مركز جافنى للسياسات الأمنية». ويعمل «مركز الأخلاق والسياسات العامة» لإدخال «الإرث الأخلاقى اليهودى المسيحى» فى الجدل السياسى.

وليست «هيريتدج» المؤسسة المحافظة الوحيدة التى تتفرع أنشطتها إلى عالمى الفكر والعمل السياسى. فعلى يمين خفض الضرائب، يتصرف كل من «نادى النمو» بقيادة ستيڤ مور و«أمريكيون من أجل إصلاح الضرائب» بزعامة جروڤر نوركويست كمجلسين لاستطلاع الآراء حول مفاهيم كالضريبة الموحدة. أما «معهد العدالة» الذى يصفه چورچ ويل بأنه «فرقة مرحة من المتقاضين التحرريين» فيدافع عن صكوك (كوبونات) المدارس، وضد فرض قيود على مشروعات الأعمال المحلية.

و«الضفة اليمنى» ليست مجرد شأن واشنطنى. فهناك الآن حوالى خمسين منتدى فكر محافظًا فى أنحاء البلاد (مقارنةً بعدد معدود من المراكز الليبرالية). ولمعهد هدسون

مكاتب فى إنديانابوليس وماديسون ووسكونسن، إضافة إلى واشنطن العاصمة، ويستخدم مزيجًا منتقى من التحرريين والإشتراوسيين، ويركز على التفكير فى المستقبل بطرق غير تقليدية. ويباهى أكبر تنظيم خارج واشنطن، وهو مؤسسة هوفر، بطاقم عاملين يبلغ عدده ٢٥٠، ويضم چورچ شولتز وزير خارجية ريجان واقتصاديين كبار فى مجال السوق الحر من أمثال جارى بيكر وميلتون فريدمان (الذى اختار ـ لسبب ما ـ التقاعد فى سان فرانسيسكو كبرى مدن الليبراليين فى البلاد). وتصدر هوفر مجلات واسعة الانتشار مثل (Hoover Digest) و (Policy Review) ولها برنامج تليفزيونى خاص بها بعنوان (Uncommon Knowledge) وحجرة الاستراحة التى يتجمع بها أعضاء هوفر لتناول الشاى بها لمسة من أوكسبريدج: رجال يرتدون سترات «التويد» يشتركون فى حوارات متحضرة ـ وأحيانًا متحركة. ولكن ستصيب الدهشة من يتوقع الروح الكلاسيكية القديمة المعهودة لحجرة استراحة أوكبريدج، من عويل على خفض تمويل الولاية وشرور الإمبريالية الأمريكية. وسيعترف لك أعضاء هوفر وهم يحسون بالذنب ويرشفون الشاى أنهم قلقون من أن صكوك (كوبونات) المدارس فاشلة لأنها تبقى على دور ما للولاية فى التعليم. ويتناقشون بأدب حول خطط زيادة حجم خفض بوش الضريبى، أو يتحاورون حول حاجة النمو العسكرى الأمريكى لأن يكون أكبر حتى يتمكن من أخذ الخطر الصينى فى الاعتبار.

وهناك منتديات فكر محافظة أخرى تعمل على نطاق أكثر تواضعًا من هوفر، فمعهد مانهاتن مثلاً يشعر بعزلة شديدة. ولكل من هذه المراكز سمة مميزة. فالعديد من مراكز الساحل الغربى مثلاً لها طابع تحررى. ومعهد ميلكن فى لوس أنچيليس، والذى أقامه ملك الأسهم «الرمة»، مرتع للعمل من أجل التخلص من اللوائح والقوانين، ولكن ليس لديه الوقت للنزعة المحافظة الاجتماعية.

ومن الأمثلة الأخرى معهد دسكفرى فى سياتل، والذى أسسه فى سنة ١٩٩٠م بروس تشاپمان، وهو يمينى عقلانى شارك مع چورچ جيلدر فى تأليف كتاب عن الجمهوريين بعنوان «الحزب الذى فقد رأسه ـ The Party That Lost Its Head» فى سنة ١٩٦٦م. وظل تشاپمان يدير إدارة الإحصاء لفترة قبل أن يتم سحبه إلى البيت الأبيض فى عهد ريجان؛ حيث صار من بين مهامه دوام الاتصال بمراكز الفكر. وحين

ترك الحكومة وجد مكانًا فى معهد هدسون فى البداية، ثم سعى لإنشاء نسخة غربية من هدسن فى سياتل قبل أن يشرع فى إنشاء «دسكثرى». ومهمة «معهد دسكثرى» «إيجاد رؤية إيجابية عن المستقبل العملى»، وهى مهمة تجعله أشبه بشىء آت من مسلسل «ستار تريك». وهو متخصص فى مزج النزعة المستقبلية بحرية السوق ـ وهو مجال يعشقه جيلدر أشهر أعضائه. ومن أكبر اهتماماته النقل: فالمعهد يؤيد إنشاء خط حديدى يربط بين سياتل [شمال غرب الولايات المتحدة] وڤانكوڤر [جنوب غرب كندا]، وكان تشاپمان أحد من استشارهم بوش حول خصخصة شركة أمتراك للسكك الحديدية. ولدى معهد دسكثرى أفكار عن القضايا البيئية الغرب أمريكية (كسمك السالمون وقطع الأشجار) وغيرها، وكان ناقدًا عنيدًا لقضية الاحتكار المرفوعة ضد مايكروسوفت.

وعلى الرغم من خصوصيته فإن «معهد دسكثرى» جزء من العمل المحافظ. وأعضاؤه يكتبون فى وول ستريت چورنال وناشيونال ريڤيو. ولمواصلة الضغط على الإدارة فيما يتعلق بالإصلاح الضريبى والحد من اللوائح عن هندسة الاتصالات، كون تحالفًا حرًا مع كاتو و«نادى النمو» والمركز القومى لتحليل السياسات (من أكبر أنصار الخصخصة فى دالاس) وأخذ قضيته إلى كارل روف مباشرةً. وفى ولاية واشنطن، يعمل عن كثب مع منتدى فكر آخرين لحرية السوق: «مؤسسة الحرية دائمة الخضرة ـ Evergreen Freedom Foundation» فى مدينة أوليمپيا عاصمة الولاية، و «مركز واشنطن للسياسات» (الذى أطلق عليه چاك كمپ اسم «مؤسسة هيريتدج شمال غرب أمريكا»). ومما يذكر أن ولاية واشنطن التى صوتت لصالح آل جور فى سنة ٢٠٠٠م، وليس لها سوى جمهوريين اثنين منتخبين فى مناصب الولاية كلها، تخصص العديد من الموارد لإفراز أفكار محافظة كمعظم دول أوروپا.

ومعهد دسكثرى من كبار مؤيدى إحدى الأفكار التى تزداد نفوذًا فى اليمين، وهى «التخطيط الذكى». ترى حركة التخطيط الذكى، حسب قول تشاپمان أن «بعض سمات الكون والأحياء يعللها سبب عقلانى وليس باعتبارها جزءًا من عملية غير موجهة كالانتقاء الطبيعى». أى أن نظرية داروين لا تعلل فى مجملها منشأ الحياة ولا تطور الأنواع. وكان أول آثار اهتمام تشاپمان المسيحى الملتزم بهذا الموضوع قلقه على

حرية التعبير، ففى سنة ١٩٩٥م هب للدفاع عن أستاذ علوم من كاليفورنيا تعرض للتهديد بالطرد لمجرد قوله إن نظرية التطور لا تفسر كل شيء. ومعظم العلماء التقليديين يرفضون التخطيط الذكى بوصفها نظرية خلق مترفة. ولكن تدفقت الكتب والبحوث من «مركز دسكفرى للعلوم والثقافة» ويشير تشاپمان إلى عديد من الانتصارات فى معركته على من سماهم «الداروينيين الجدد». وفى أكتوبر ٢٠٠٢م، أصبحت أوهايو أول ولاية تضع معايير علمية تقتضى من الطلاب «معرفة كيف يواصل العلماء نقد جوانب نظرية النشوء والتطور بالتحليل والنقد». وتحث المنطقة التعليمية بمقاطعة كوب بولاية چورچيا معلميها على مناقشة «الآراء التى يدور حولها الجدل» عن النشوء والتطور. كما تمكن الجمهوريون المحافظون من إضافة فقرة إلى تقرير المؤتمر البرلمانى الملحق بمشروع قانون «عدم التخلى عن الأطفال» تحث المدارس (ولكن دون إجبارها) على تدريس «النطاق الكامل للآراء العلمية».

وتعد حركة التخطيط الذكى نموذجًا لاستعداد اليمين لخوض معركة مع ما تعتبره «مؤسسة علمية» ليبرالية على أرضها، مستعينة بالبحث العلمى الخاص بها. وتهاجم منتديات الفكر اليمينية الدوائر العلمية بسبب موضوع الخلايا الجذعية، كما يتأملون البيانات الواردة عن ظاهرة ارتفاع حرارة الأرض، ويعد بچورن لومبورج مؤلف كتاب «الناشط البيئى المتشكك» (٢٠٠١م) بطلاً فى جهات مثل «معهد الأعمال الأمريكى» و«معهد دسكفرى». كما أن هناك معارك محتدمة حول حقوق الحيوان والقتل الرحيم والأصول العلمية للشذوذ. والدوائر العلمية لم تعر حتى الآن التفاتًا لـ «المحدثين» المحافظين لا سيما فيما يتصل بالتخطيط الذكى. بل إن بعض علماء أوهايو ساووا بين أنصار التخطيط الذكى وأتباع طالبان. ولكن يبدو أن اليمين يمد نطاق معركة الأفكار إلى آفاق جديدة، كما فعل ميلتون فريدمان وغيره فى الاقتصاد قبل أربعين سنة.

الناس والمال

تعد منتديات الفكر المحافظة حاضنة للناس والأفكار معًا. فدونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس كلاهما من قدامى أعضاء هوفر. وكذلك ربع أعضاء «مجلس السياسات الدفاعية». إيلان تشاو وزيرة العمل، وكاى كولز چيمس مدير مكتب شئون

العاملين كلاهما من خريجى «هيريتدج». وميتش دانييلز المدير السابق لمكتب الإدارة والموازنة كان رئيسًا لمعهد هدسون. وإليوت أبرامز المستشار الأول للشرق الأوسط فى إدارة بوش كان يرأس «مركز الأخلاقيات والسياسات العامة». ويباهى «مركز الدراسات الإستراتيچية والدولية» كبار المسئولين الحكوميين بأنه كان يعرف بـ «مزرعة تفريخ مستشارى الأمن القومى». ومئات من موظفى الإدارة الأقل درجة يكتسبون خبراتهم فى مراكز الفكر، حيث يتتلمذون على المحافظين من الإدارات السابقة. فمؤسسة هيريتدج تستخدم إد ميس المحامى العام فى إدارة ريجان، وبيل بينيت وزير التعليم فى إدارته. وكما يحب إدوين فيولنر رئيس هيريتدج أن يقول: «لو كان الناس سياسات إذن فمنتديات الفكر بمثابة حكومة الظل فى أمريكا».

كما تؤدى منتديات الفكر دور مركز القيادة العامة بالنسبة لمثقفى اليمين. فمؤسسة هيريتدج تعقد اجتماعًا سنويًا يجمع بين ٣٧٥ من جماعات السياسات المحافظة من أنحاء البلاد ويسمح لهم بتبادل الأفكار. ويضم دليل مؤسسة هيريتدج لخبراء السياسات لسنة ٢٠٠٣م أسماء ٢٢٠٠ خبير و٤٢٠ تنظيم متخصص فى السياسات كلهم ينتظرون بفارغ الصبر أن يستشاروا. ولو بدا كأن هناك خطة عامة وراء ذلك فالأمر كذلك بصورة من الصور. فوراء منتديات فكر اليمين ومراكز السياسات والمنح الجامعية والنشرات العلمية الرفيعة والنشرات الطلابية وشبكات التليفزيون والبرامج الإذاعية، يكمن عدد من مؤسسات المحافظين. ولا تزال الأسماء الخمسة الكبرى ـ سكايف وكورس وكوتش وبرادلى وأولين ـ لها مكانتها، ولكن أقل مما كانت. ويتواصل العنصر المشترك الذى بدأ فى السبعينيات: فكان كن لاى مدير إنرون حتى وقت قريب عضوًا بمجلس أمناء «معهد الأعمال الأمريكى» مع زميله مدير الطاقة ديك تشينى. لكن الفرصة الأكبر كانت تنامى المتبرعين الأفراد ممن تم اجتذابهم عن طريق الرسائل البريدية. فمؤسسة هيريتدج تضم حاليًا ما يزيد عن مائتى ألف متبرع فرد، يمدونها بأكثر من نصف أموالها بعد أن ولت أيام كان المال الذى يدفعه ريتشارد سكايف يمثل ٤٠ ٪ من تمويلها.

فى أمريكا، اضطلعت ومنتديات الفكر بعملية وضع السياسات التى تضطلع بها الأحزاب فى الدول الأخرى. فوصف تنظيم الحزب الجمهورى بأنه عقيم فكريًا يعد

ظلمًا إلى حد ما، ولكنه حاليًا يعمل بصفة أساسية كأداة لجمع التبرعات وتوزيعها. بل إن الحزب القومى أو ما يضاهيه فى الولايات، يضم إدارات بحث موجهة للبحث عن قصص مخزية عن الديمقراطيين أكثر من إعادة توصيف دور الولاية مثلاً (ومنافسوها الديمقراطيون أيضًا منكبون على التشهير والبحث عن فضائح الجمهوريين). وفى الوقت نفسه، فكل جمهورى طموح فى مجلس النواب هو مقاول سياسات شبه مستقل، يبحث عن فكرة تصنع له سمعة. وهم مقيدون بالوقت فى العادة (جمع التبرعات مرة أخرى)، وبالتالى فالأفضل أن يسندوا إلى منتديات الفكر مهمة البحث عن سياسات نيابة عنهم. كما أن منتديات الفكر أصبحت خبيرة فى استغلال تقسيم السلطة فى واشنطن. فلو لم تفلح فكرة ما مع البيت الأبيض، يمكنك أن تجربها مع قادة مجلس النواب (كما فعلت «الضفة اليمنى» مع إصلاح نظام دولة الرفاهية)؛ وإن اصطدمتَ بالمعارضة فى مجلس الشيوخ، فعليك أن تستقطب الرئيس كما فعلت «الضفة اليمنى» مع الضريبة المزدوجة على الأرباح.

وأخيرًا الإعلام اليمينى

فى ديسمبر ٢٠٠٢م، حدث شىء غريب إلى حد ما. إذ شكا آل جور من تحامل المحافظين على الصحافة الأمريكية، وصرح لصحيفة نيويورك أوبزرفر قائلاً: «الإعلام غريب هذه الأيام فيما يتعلق بالسياسة، وهناك بعض الأصوات المؤسسية الكبرى تعتبر بصراحة جزءًا لا يتجزأ من الحزب الجمهورى». وكان ما أثار هذه الشكوى هو ورود معلومات عن أن روجر أيلز مدير «فوكس نيوز» أرسل رسائل إلى كارل روف يقدم له فيها نصائح غداة ١١ سبتمبر.

ظل المحافظون يشتكون من استحالة وصول رسالتهم إلى التليفزيون. وفى عهد جورج بوش الابن، برزت فوكس نيوز لتحل محل سى. إن. إن. (أو «شبكة كلينتون الإخبارية» كما سماها المحافظون) فى سنة ٢٠٠٢م كأكثر القنوات الإخبارية شعبية، وأعطت حركة المحافظين وسيلة جديدة تمامًا لنشر فكرهم. وُلدت فعليًا هذه الشبكة الإخبارية المدفوعة الأجر فى سنة ١٩٩٦م، حين أدرك صاحبها روبرت مردوك أن جنوح معظم المحطات الإخبارية نحو اليسار أحدث ثغرة فى اليمين بالرءوس المتماثلة

التى استمعت إلى رش ليمبو. فخرج إيلز- الذى عمل من قبل فى البيت الأبيض فى عهد بوش الأول، وكان منتجًا لبرنامج ليمبو الإذاعى - بصيغة ناجحة للغاية، وهى الحوارات مع أصحاب الرأى (وهم أرخص) بدلاً من التقارير الأجنبية (وهى أغلى). فركز على برامج الجدل الفكرى بين أصحاب الرأى واستفزاز المؤسسة الليبرالية بوصف هذه السياسة «بالعادلة والمتوازنة».

ونجم فوكس نيوز هو بيل أوريلى، و (The O'Reilly Factor) هو أنجح البرامج الإخبارية فى المحطات مدفوعة الأجر. وزاد الطلب على أسلوب أورايلى فى التعبير عن الغضب الشعبى؛ حتى أصبح له برنامج إذاعى يومى أيضًا. فيواجه أوريلى كل ليلة فى برنامجه التليفزيونى من يخونه الحظ من ممثلى المؤسسة الليبرالية - أستاذ ملتح لم يدرك بعد أن الستينيات ولت وانقضت، أو أحد دعاة السلام ممن يضعون قرطًا فى آذانهم ويعقدون خصلة من شعرهم على أقفيتهم - ثم يبدأ فى محاضرتهم عن سخف آرائهم. (ولا يزال سبب قبول هؤلاء الناس دعوته من الألغاز المحيرة فى عصرنا).

يؤكد أورايلى بإصرار على أنه «غير سياسى» ويتحدث باسم رجل الشارع المشمئز من النظام برمته. والحقيقة أنه محافظ شعبى تقليدى من نتاج الطبقة المتوسطة الدنيا الأيرلندية (أو الطبقة العاملة لو صدقتَ روايته المتواضعة عن أصله) يعارض الطريقة التى تعامل بها النخب الليبرالية الناس من أمثاله كأدوات فى مخططاتهم وبرامجهم. ويضع تحت مكتبه ممسحة أرجل عليها صورة هيلارى كلينتون، ويقول مفاخرًا إن برنامجه «الوحيد الذى يتحدث من وجهة نظر الطبقة العاملة». (٥)

ولعل شعار شبكة فوكس - «نحن ننقل وأنت تقرر» - أحسن نكتة فى الصحافة الأمريكية. فالشبكة تكون فى أفضل حالاتها عندما تكون فى أوج حزبيتها وتحيزها؛ فذات صباح فى سنة ٢٠٠٣م، بدأ البرنامج بنقاش مذعور حول تحيز نيويورك تايمز (كان الناقد التليفزيونى للصحيفة قد كشف مؤخرًا عن تحيزه الليبرالى السافر باتهامه شبكة فوكس بأنها محافظة). وانتقل المقطع التالى للتعامل مع الاحتجاجات على «ديكسى تشيكس» أى «كتاكيت الجنوب - Dixie Chicks» وهى فرقة ريفية تسخر من جورج بوش الابن. وعلى الفور أعلنت مذيعة فوكس عن عزمها إحراق كافة ما لديها

من أقراص «ديكسى تشيكس» المدمجة ـ دون أن تجعل السياسة تتدخل فى التغطية الثقافية للشبكة بالطبع.

والحرب على الإرهاب أظهرت إما أفضل ما عند فوكس أو أسوأه حسب وجهة نظر المتابع لها. فجاء أحد مراسليها، وهو جيرالدو ريفيرا، بمسدس وأعلن رغبته فى قتل أسامة بن لادن.[٦] وفى تظاهرة ضد الحرب فى مدينة نيويورك، ظهر شريط شاشة فوكس الإلكترونى يقول: «إلى المتظاهرين: يلتقى «نادى هواة مايكل مور» يوم الخميس بأحد أكشاك الهاتف بتقاطع طريق ٦ و شارع ٥٠».[٧] وفى مشهد هزلى لتظاهرة احتجاج فى فرنسا، بدا الارتباك لبعض الوقت على مراسل فوكس حين سئل عن سبب ضخامة عدد المتظاهرين فى الشوارع، ثم باح بالسر قائلاً: «كثير منهم شيوعيون».

أمدت شبكة فوكس المحافظين بمحطة تليفزيونية يمكنهم أن يركنوا إليها. واضطرت مؤسسة هيريتدج لتنبيه موظفيها بالتوقف عن مشاهدة أخبار فوكس كثيراً على أجهزة حواسبهم خشية أن تتعطل أنظمة الأجهزة. وفى أثناء إعادة عد الأصوات فى فلوريدا فى سنة ٢٠٠٠م، اعترف ترنت لوت قائلاً: «لولا فوكس لا أدرى ما كنت سأفعل لأستقى الأخبار». بل إن جورج بوش الابن أثنى على تونى سنو (الذى عمل مع أبيه قبل أن يعمل كمنسق إخبارى بشبكة فوكس) فى كلمة مسجلة خاصة لبرنامج سنو الذى يذاع صباح الأحد، فى أبريل ٢٠٠٠م. وصرح نيوت جينجريتش لصحيفة نيويوركر قائلاً: «لو ظهرت على شبكة فوكس فلا شك أن الناس فى الإدارة سيرونني. وإذا كانت هناك قناة أشاهدها فى أية إدارة بواشنطن فهى عادةً قناة فوكس». و عادة ما تقوم إدارة بوش بإرسال أثقل شخصياتها إلى فوكس ليتحدثوا إلى المؤمنين ـ فى مراهنة محسوبة ـ بأن تضطر الشبكات الأكبر لعرض مشاهد لكولن باول أو ديك تشينى.

ومن النقاط التى لا ينبغى إساءة تقديرها فى فوكس، أن تقاريرها السياسية ممتازة على الرغم من حزبيتها. يحرص آيلز على موازنة الشقراوات بأصحاب الشعور الخشنة، وسياسيين فرنسيين ضعاف الإنجليزية، بمعلقين من ذوى الأمخاخ العالية مثل فريد بارنيز وتشارلز كراوتهامز، ويعد معلقها السياسى الأول بريت هيوم واحداً من

أذكى المعلقين الأمريكيين. واعتادت الشبكة تغطية وقائع السياسة الأمريكية بصورة متميزة للغاية، فكانت تغطيتها لانتخابات ٢٠٠٢م النصفية أفضل من تغطية منافساتها.

ومن الأسلحة الأخرى التى ظهرت لليمين فى عهد جورج بوش الابن، مدونات الإنترنت [الولوج فى الشبكة وربط الأحداث والمعلومات]. والمدونة على عكس شبكة فوكس الإخبارية تعد ظاهرة عفوية تمامًا. والمدونون يعملون لقاء أجور زهيدة فى الغالب، ويكسبون متابعيهم بالكلمة وبضغطة على الفأرة لا بالإعلان. ولكنهم بدءوا يتحولون إلى ظاهرة من ظواهر الإنترنت ذات نفوذ هائل. فهم يعلقون على الأخبار ويمدون متابعيهم بربط لمواقع مهمة للأخبار العالمية ويعتمدون على القدرات العقلية لقرائهم الذين ينتشرون حول العالم.

مواقع المدونات ليست حكرًا على حركة المحافظين. فكثير من المدونين يساريون، وأكبر مدونَين يمينيين ليسا محافظين تمطيين: أندرو ساليڤان المحرر السابق فى (The New Republic) وأحد أصدقائنا، كاتب كبير شاذ؛ وجلين رينولدر (الحكيم) أستاذ قانون تحررى بجامعة تينيسى. وكما الحال مع الإذاعة الحوارية، يبدو أن عالم المدونات يناسب اليمين أكثر من اليسار. ونال كل من ساليڤان ورينولدز لقب «مدونا الحرب» لأن موقعيهما على الإنترنت بدأ فى أعقاب ١١ سبتمبر حول نشطاء السلام ومعاداة السامية. وتتجه معظم طاقة المدونين إلى فضح البيانات «الليبرالية» الزائفة للصحف ومحطات التليفزيون الكبرى، وعلى رأسها نيويورك تايمز. فكان للمدونين دور كبير فى فصل هويل رينز مدير تحرير الصحيفة.

كما حقق الفكر المحافظ تقدمًا فى نمط التوزيع المنخفض التقنية، أى فى المتاجر الضخمة مثل وال مارت. فهناك عدد من سلاسل المتاجر الكبرى مقرها فى الجنوب ومدت يد العون لبعض المنتجات المحافظة، بينما حمت مواطنى «أمة اليمين» من تهريج الليبرالية. فساعدت وال مارت على الترويج لـ «حكايات ڤجى» وهى سلسلة رسوم متحركة مسيحية أبطالها خضراوات ناطقة، ومثل المتجر ربع مبيعاتها.[٨] كما بدأ المتجر نفسه سلسلة «المتروكون فى الخلف» وهى سلسلة كتب مسيحية عن أرمجدون. فى حين أهملت سلاسل مكسيم وغيرها ولم يحقق أى منها رواجًا لافتعالها وفجاجتها (غنت فرقة كرو أغنية عن بيع الأسلحة النارية فى ول مارت).

وحتى بعد ما أسدت أكبر سلسلة متاجر فى العالم من معروف للمحافظين، هل رضى الإعلام المحافظ؟ لا؛ فالموضوع الثابت لكل من رش وبيل وشين، وغيرهم، أنهم لا يزالون أقلية مهددة. والكتب اليمينية التى تفضح تحيز الإعلام تحقق أعلى المبيعات ومنها كتاب برنارد جولدبرج «التحيز: أحد موظفى شبكة سى. بى. إس. يكشف من الداخل كيف يشوه الإعلام الأخبار»، وكتاب آن كولتر «الافتراء: أكاذيب الليبراليين عن اليمين الأمريكى». ولم يؤد اتهام جور فى سنة ٢٠٠٢م إلا إلى صرخات احتجاج، فأى غبى يمكن أن يدرك أن عدد الصحف والمحطات التليفزيونية الليبرالية المهمة فاق عدد مثيلاتها اليمينية. ومن ناحية أخرى، هناك توازن أكبر مما كان. فيمكن لليساريين حاليًا أن ينشروا أكثر الكتب مبيعًا عن الطريقة التى اختطف بها اليمين الإعلام أيضًا، ومن الأدلة على ذلك كتاب آل فرانكن «الكذب والكذابون الذين يروون الأكاذيب: نظرة محايدة ومتوازنة على اليمين» (٢٠٠٣م). وأقل ما يمكن قوله إن شبكة فوكس والمدونون أعادوا كفتى الميزان بين المحافظين والليبراليين إلى التعادل. ويبدو أن هناك كتاب أعمدة يمينيين أكثر من أى وقت مضى، ويبدو أن الأيام التى كان فيها جورج ويل ووليام سافاير وطاقم محررى وول ستريت جورنال المتكلمين باسم المحافظين قد ولت. وتظهر حاليًا أسماء مثل كراوتهامر وبارون وبروكس وكريستول وبوت وفرام، فى التحرير ومقالات الرأى على الصفحات الأولى فى كافة أنحاء البلاد.

لماذا فاز اليمين؟

ليست هناك مبالغة فى مدى ما تحقق للضفة اليمنى من فوز فى معركة الفكر فى واشنطن. فمنتديات الفكر اليمينية أصبحت اليوم أحد موارد الطيف السياسى بجانبيه. وفى سنة ٢٠٠٢م حضر عدد من الديمقراطيين (منهم رام إمانويل أقرب مساعدى كلينتون السابقين) جلسة بمؤسسة هيريتدج بحثًا عن أعضاء جدد لمجلس النواب. وإذا زرتَ مكتب أحد أعضاء مجلس الشيوخ من الديمقراطيين لوجدتَ نسخًا من مجلات المحافظين من قبيل Weekly Standard , Policy Review, National New York Review of Books، فالساسة يذهبون وراء الأفكار أينما وجدت.

لماذا يحتل الفكر المحافظ الصدارة بهذه الصورة؟ فالعاصمة تدعم أسطولاً صغيراً من منتديات الفكر والمجلات الليبرالية. والمؤسسات المحافظة سمك صغير بالمقارنة بحيتان الليبرالية كمؤسسات فورد وروكفلر وماك آرثر. وبرادلى يقدم فى السنة أقل مما تقدمه فورد فى شهر. وأمريكا الليبرالية تعتمد أولاً على صحيفة البلاد الرسمية ـ نيويورك تايمز ـ ومعظم شبكاتها الإخبارية، وجامعات أمريكا العملاقة. بإيجاز، هناك قوى عقلية أكبر على اليسار ومال أوفر وموارد أكثر، إلا أن اليسار لا يمارس ما يمارس اليمين من تأثير ونفوذ، سواء فى إيجاد سياسات محددة أو فى تغيير المناخ العام للرأى.

وهذا بالطبع من عمل السلطة. ففى ظل بيت أبيض ومجلس نواب جمهوريين يصعب على الليبراليين الترويج لفكرهم. وقد يزعم معظم المحافظين أن هذا يرجع أيضًا إلى جودة الفكر المقدم. وعلى الرغم من حزبيتهم فإنهم على حق؛ فمعظم الأفكار المهمة فى العقدين الأخيرين جاءت من اليمين (كما جاءت من اليسار فى عصر وبز). ولولا أن كان فكر المحافظين أكثر حيوية وحياة من الفكر الليبرالى لما كان جورج بوش فى البيت الأبيض، ولما كانت القوات الأمريكية فى بغداد، ولما دونا هذا الكتاب بالطبع.

إلا أن علو نجم الضفة اليمنى له صلة بالتركيز والالتزام أيضًا. فالمؤسسات المحافظة تعلم تمامًا ما تريد ـ أن توجه العالم فى اتجاه محافظ، وتعلم تمامًا كيف تحقق هدفها ـ بجعل فكرهم يؤثر فى صوغ السياسات. أما منافسوهم الليبراليون فأضعف. فمؤسسة فورد «تعمل على تعزيز القيم الديمقراطية والحد من الفقر والظلم ودعم التعاون الدولى ودفع الإنجازات البشرية». وكلها أهداف نبيلة ولكنها تصلح لأى نوع من البرامج. ولا تزال المؤسسات الليبرالية تتنافس على جزء من الساحة العامة، إلا أنها تركز كثيراً من طاقتها على «التنظيمات الشعبية» و «المشروعات المحلية» بصورة أو بأخرى، والعديد منها فى الخارج. فمؤسسة فورد لها ثلاثة عشر مكتبًا فى العالم الثالث تعمل فى مشروعات كمساعدة فلاحى تشاتيس ماوجا فى نيبال «فى تعلم عملية تخطيط القنوات». وهذه النزعة الخيرية قد تفيد العالم أكثر من تمويل مناظرة فى «معهد الأعمال الأمريكى» عن «مستقبل إيران: حكم الملالى والديمقراطية والحرب على الإرهاب» ولكنها لا تصلح كحركة مركزة.

كما يبدى المحافظون درجة كبيرة من الالتزام بقضيتهم. عد بالذاكرة إلى الوراء إلى سنة ١٩٧٣م، حين نشأت مؤسسة هيريتدج. من ذا الذى كان سيتحمل سخرية أصدقائه بالعمل فى منتديات فكر محافظ إلا أخلص المخلصين؟ وحتى بعد أن حظى هؤلاء الرواد بالثراء والسلطة، فهناك أمر غير صحى، يُحبب التطرف فى العديد من أصحاب منتديات الفكر المحافظة. كان بريسكوت بوش سيشعر بالألفة فى «مؤسسة بروكنجز» أو«مجلس العلاقات الخارجية»؛ ولو استيقظ ووجد نفسه فى ندوة بمعهد كاتو عن «نعم، دفاعًا عن تداول المخدرات» (عنوان كلمة ألقاها چاكوب سولوم فى ٢٩ مايو ٢٠٠٣م) لوجد فى نفسه ميلاً لإبلاغ الشرطة. والإعلام المحافظ لديه الشعور نفسه بالتركيز والالتزام. يحاجج جروفر نوركويست: «الصحافة المحافظة، محافظة عن وعى، وهى جزء من الفريق عن وعى. والصحافة الليبرالية أكبر بكثير، ولكنها فى الوقت نفسه تعتبر نفسها صحافة النظام السائد. لذا فهى مشوشة؛ وأحيانًا تظن أنها بحاجة لانتقاد كلا الجانبين».[٩] والنقاد المحافظون يسعدهم أن يلقوا خطبًا فى مناسبات اجتماعية فى «معهد الأعمال التنافسية» أو أن يحضروا لقاءات نوركويست صباح كل أربعاء، لا كمراقبين محايدين بل كمشاركين.

وبالروح نفسها، تعد منتديات الفكر المحافظة أعند من منافساتها الليبرالية. فكثير من المؤسسات الليبرالية والوسطية تعطى انطباعًا بأنها وقعت فى أيدى أناس يديرون المؤسسات كعمل يأخذون عليه راتبًا. والمؤسسات تنشأ لدعم أطقم موظفيها، لا سيما الكبراء من أعضاء مجالس إدارتها. أما منتديات الفكر المحافظة، فتدار كمشروعات تجارية بضاعتها دعم ثورة المحافظين. ومن بين أول ما فعل مايكل چويس حين تولى إدارة مؤسسة برادلى فى سنة ١٩٨٥م، أن أبلغ المحافظين ألا يعتبروا أموال المؤسسة حقًا مكتسبًا.

وزعيم هذه الثورة الإدارية هو مؤسسة هيريتدج. فباع إد فيولنر أفضل ما لدى هيريتدج Policy Review لمؤسسة هوفر لا لسبب إلا لظنه أن المال سُينفق بطريقة أفضل فى مجال آخر. أما بالنسبة للتسويق، فتعمل هيريتدج بحماس فى بيع الأفكار المحافظة، كما تتحمس كوكا كولا لبيع منتجاتها. فابتكرت موجزات من صفحتين لأعضاء مجلس النواب المشغولين، وتوزع دراساتها عليهم وعلى رؤساء الإدارات

التنفيذية. ولديها مخزون من بطاقات ملونة كتبت بها مواقف المحافظين بعبارات بليغة تعد ذخراً لأعضاء مجلس النواب ممن يدعون للبرامج الحوارية. ومن أسباب رجوع العديد من الديمقراطيين لكتيبات هيريتدج ـ وهم يشعرون بالذنب ـ أن هذه الكتيبات تفيد من يطالعها.

وتذخر حواسب هيريتدج، حسب قول إريك ألترمان، بأسماء أكثر من ٣٥٠٠ صحافى مصنفين حسب التخصص. بل إن العاملين بها يتصلون بالصحافيين ليتأكدوا أن لديهم ما يحتاجون. وتمدهم هيريتدج بملخصات مناسبة من صفحتين عن كافة دراساتها وتبذل كل جهد لاستقطابهم. وينفق المركز على استديوهين تليفزيونيين وعلى موقع على الشبكة Townhall.com والذى يقدم مجموعة يومية من المقالات المحافظة، وكافة مواقع الربط المناسبة التى تسمح باكتشاف كل شىء، بدءاً من الأحداث المحافظة الوشيكة إلى موقف هيريتدج من القتل الرحيم.

كما تمثل هيريتدج سمة أخرى من سمات «الضفة اليمنى»؛ فاليمين بارع فى «تغطية الواجهة المائية». وهناك نمط غريب من التعاون بين توجهات هيريتدج العدوانية والعمل العقلانى فى «معهد الأعمال الأمريكى». فيسمح «معهد الأعمال الأمريكى» للمثقفين بالتفكير فى أفكار كبرى، فيمكنك أن تتحدث إلى چون لوت عن الأسلحة النارية (يبدو موقفه واضحًا فى كتابه «المزيد من الأسلحة النارية يساوى معدل جرائم أقل»)، أو إلى كريستينا هوف سومرز عن «التفرقة بين الجنسين» فى المدارس (ترى أن البنين يعامَلون بصورة أسوأ من البنات فى المدارس). ويزيد تركيز هيريتدج على العمل الأثقل فى مجلس النواب، مما يسمح بشن هجوم مزدوج على التقليدية الليبرالية. فيقوم «معهد الأعمال الأمريكى» بتليين المؤسسة الليبرالية بالقصف بعيد المدى، ثم تتولى هيريتدج إرسال القوات البرية للاستيلاء على الأرض وتحويلها إلى نطاق محافظ.

مؤسسة جديدة

طريقة أخرى للنظر فى ذلك الأمر، أن المحافظين تحولوا إلى مؤسسة فى عهد چورچ بوش الابن. وهى فى جزء منها مسألة عمر. فأناس مثل إد فيولنر فى هيريتدج وكريس

ديموث فى «معهد الأعمال الأمريكى» ـ وكلاهما من العناصر الثابتة فى واشنطن منذ سبعينيات القرن الماضى ـ أصبحوا حاليّا جزءًا من الطبقة الحاكمة فى واشنطن، ككبراء المؤسسة الليبرالية تمامًا. أما الشباب الغاضب، فهم حاليّا نبلاء يعيشون فى رغد ويدعون لمآدب العشاء بالبيت الأبيض.

وكأية مؤسسة، تقدم المؤسسة المحافظة سلَّمًا واضح المعالم. فيمكن لأى مفكر محافظ الآن أن يقضى عمره كله فى أحضان الحركة الدافئة، فيبدأ كطالب يعمل بصحيفة جامعية تمولها إحدى المؤسسات، ثم يصبح باحثًا مثبتًا بمؤسسة هيريتدج، وينتهى به الحال كأحد كبار أعضاء «معهد الأعمال الأمريكى» مع إمكانية بعض التحول إلى جامعة شيكاغو أو أى مركز إقليمى ومنصب فى ظل إدارة جمهورية فى الطريق [إلى البيت الأبيض أو مجلس النواب]. وفى كل مرحلة تتوفر الخيارات. فإن كنتَ طالبًا مهتمًا بالاقتصاد، فإن «معهد الدراسات الإنسانية» بجامعة چورچ ماسون يتيح برامج لمدة أسبوع لتعريف الطلاب المتميزين بأفكار حرية السوق. وإن كنتَ من المحافظين الجدد، فأول اتصال هاتفى تجريه يكون لمؤسسة برادلى، وربما يستحسن أن تعرج على «معهد الأعمال الأمريكى»، وينبغى أن يتوفر لك من يستطيع أن يتوسط لك بمجلة Standard، وإن كنت موالّيا للحزب، فإن سكايف هو مقصدك وقد يكون لك مكان فى مؤسسة هيريتدج. وإن كنت تحرريّا فأمامك العديد من الناس فى كاتو أو هوفر يمدون لك يد العون. و«الضفة اليمنى» توفر لأنجح أعضائها الشهرة والثراء: أعمدة بالصحف، ظهور من حين لآخر على شاشة فوكس، مكافآت سخية فى مقابل محاضرات تلقى فى جمهور من المحافظين.

ومن الأمثلة على كنف المؤسسة ما يقدمه دينيش دسوزا. وصل دسوزا الهندى الأصل إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٧٨م ودرس بكلية دارتموث؛ حيث عمل محررًا مؤسسًا لـ Dartmouth Review وهى صحيفة محافظة قام بتمويلها جزئيّا «معهد إيرڤنج كريستول للشئون التعليمية». وصقل مصداقيته المحافظة بتدوينه ترجمة لحياة چيرى فالويل، وأدى مهمة كمحلل سياسات فى إدرة ريجان، ثم عمل لفترة وجيزة محررًا فى Policy Review التابعة لمؤسسة هيريتدج. وأمضى التسعينيات كباحث فى «معهد الأعمال الأمريكى» حيث دون كتبًا عن شرور الجامعات الليبرالية

ومآثر ريجان وفضائله ـ وهذا كله قبل أن يبلغ الأربعين. ويقبع دسوزا حاليًا على الساحل الغربى بمعهد هوفر؛ حيث يواصل عمله كمؤلف غزير الإنتاج.

تتسم هذه المؤسسة الجديدة بنقاط الضعف نفسها التى اتسمت بها نظيرتها الليبرالية فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، ومنها التحيز. فالحماس قد يلهب الفكر، لكنه لا يرتبط دائمًا بالموضوعية. ويتهامس النقاد بأن اهتمام رواد منتديات الفكر بترويج الأيديولوچيا، أصبح يفوق اهتمامهم بابتداع أفكار جديدة. وقد يفلت «معهد الأعمال الأمريكى» وكاتو بادعائهم أنهم «جامعات بلا طلاب»، ولكن أليست هيريتدج مروجة لخط البيت الأبيض؟ وهناك العديد من «الدراسات» التى لا تعدو أن تكون أسلحة فى حرب أيديولوچية. ولا شك أن مؤسسة بروكنجز الوسطية أفضل فى مقاومة هذا التكرار الأيديولوچى الممل من التنظيمات المحافظة. وخرجت بروكنجز عن الكلاسيكية الليبرالية فى موضوع اختيار المدارس، على الأقل موضوع صكوك (كوبونات) المدارس باعتبارها شيئًا طيبًا.[١٠] ونادرًا ما تفاجئ هيريتدج الناس بهرطقة أيديولوچية كهذه.

والخطر الماحق الآخر الذى يتهدد «الضفة اليمنى» الانكفاء على الذات. فمن يقضون أعمارهم فى منتديات الفكر يبدءون فى إدمان الراديكالية لمصلحة المراكز الخاصة. فسؤاله عما إذا كان بحاجة لحل جذرى لمشكلة ما، كسؤال حلاق عما إذا كان بحاجة لقص شعره. ويبدو أن «الضفة اليمنى» تشجع التطرف. فالأبحاث التى تنادى بالخروج بالمشروعات الحرة إلى الفضاء الخارجى وإلغاء الوزارات الحكومية والإطاحة بالنظام السعودى، تجذب اهتمامًا أكبر من المسائل المتعلقة بإصلاح المدارس والمستشفيات والخدمات الحكومية فى أمريكا. فطبقة المثقفين اليساريين فقدت مكانها فى الستينيات لأن نموها توقف عند ڤيتنام ولم تدرك ما كان يحدث فى شوارع أمريكا. هذا نفسه قد يحدث لافتتان المثقفين اليمينيين الحاليين بالشرق الأوسط.

تتمتع الآن الضفة اليمنى بالسيطرة المحكمة. وأفضل مقياس لذلك هو أن الليبراليين يعملون حاليًا على بناء نسختهم. وقبل ثلاثين سنة، عندما أسس پول ويريش مؤسسة هيريتدج، فإنه أنشأ مؤسسته المضادة المحافظة على غرار المؤسسة الليبرالية عن عمد؛

والآن يرد الليبراليون الجميل. فأنشأ چون پودستا آخر كبار موظفى البيت الأبيض فى عهد بيل كلينتون منتديات فكر ليبراليّا جديداً باسم «مركز التقدم الأمريكى» كنسخة طبق الأصل من مؤسسة هيريتدج. ولا يساور الساسة الديمقراطيين شك فى الحاجة الماسة لمؤسسة كهذه لتوجيه قدر من التركيز إلى قطيع جماعات المصالح الذى يسيطر على الحزب.

ولا شك أن الديمقراطيين فى حاجة ماسة لـ «رأس مال فكرى جديد» كما أقرت هيلارى كلينتون صراحةً.[١١] إلا أن ميزة المحافظين تكمن فيما هو أكثر من الفكر. فهى تكمن فى القاعدة الجماهيرية العاملة فى أرجاء البلاد. فمن يرسلون الشيكات لهيريتدج هم أنفسهم الذين يحضرون اجتماعات الضواحى التى يعقدها الجمهوريون ويحتشدون وراء «الاتحاد القدمى للبنادق» ويشاركون فى المسيرة السنوية للحق فى الحياة فى واشنطن العاصمة. وإلى هذه القاعدة الجماهيرية نذهب فى الفصل القادم.

***

الفصل السابع

العضلات

يروى عن دوق ولنجتون أنه قال وهو يستعرض جيشه قبل معركة واترلو: «لا أدرى أى تأثير سيكون لهؤلاء الرجال على العدو، ولكنهم بحق الله يخيفوننى». لو زار چورچ بوش الابن «مؤتمر العمل السياسى المحافظ (CPAC)» لسنة ٢٠٠٣م لقال العبارة نفسها.

هذا المؤتمر سنوى وينظمه «اتحاد المحافظين الأمريكيين». وفى سنة ٢٠٠٣م، احتشد فيه أكثر من أربعة آلاف محافظ نشط ـ ألف وسبعمائة منهم من طلاب الجامعات ـ فى العطلة الأسبوعية فى أرلنجتون، ڤيرچينيا، ليستمعوا إلى ديك تشينى وكاثرين هاريس وغيرهما من أبطال الحركة يتحدثون من فوق منصة أسدلت عليها أستار بالألوان الأحمر والأبيض والأزرق، ومن وراء ظهورهم نصب ثمانية عشر علمًا أمريكيًا. وشملت عناوين الجلسات التى عقدت «الإسلام: دين السلام؟»، «أساطير وأكاذيب وإرهاب: خطر النزعة البيئية الراديكالية». وحمل المندوبون صغار السن لافتات كتب عليها «أعطوا الحرب فرصة: السلام من خلال القوة النارية العظمى»، وألصقوا ملصقات تقول «حارب الجريمة ـ رُد بطلقة مماثلة»، واشتروا دمية على شكل چورچ بوش الابن تردد أقواله المأثورة من قبيل «نحن نعمل بكل جد حتى نطعم عائلتك». ومن المعارض التى أقيمت ولقيت أكبر إقبال لتكون نموذجًا ضد «مكتبة كلينتون» والتى تزمع المؤامرة اليمينية الواسعة بناءها على بعد أمتار من «مكتبة كلينتون» فى ليتل روك بولاية أركانسو؛ وتضم «قاعة عار هيلارى» و«خسائر كلينتون»

و«معرض رواد الكسب غير المشروع» و«وزارة» العلاقات «الداخلية». بل إن أحد المشاركين رفع لافتة كتب عليها «محو المسلمين = محو الإرهاب» حتى طلب منه مكتب نائب الرئيس الكف عن ذلك.

مخ بدون عضلات لا يوصلك فى السياسة إلا إلى هذا الحد. فمنتديات الفكر المحافظة تتربع على قمة جسم النشطاء المحافظين الذى تيبس من كثرة العضلات: فأعضاء «مؤتمر العمل السياسى المحافظ» ومئات الآلاف من القاعدة الجماهيرية المنتشرة فى أنحاء البلاد والذين يفكرون مثلهم، هممن يطرقون على الأبواب ويوقعون الالتماسات ويتصلون هاتفيًا بالبرامج الإذاعية ويحتشدون فى تجمعات الدوائر الانتخابية. وجزء كبير من هذه العضلات موجه لا لمجرد ضرب الحزب الديمقراطى بل لرفع اسم الحزب الجمهورى. وإدارة بوش على وعى بمطالب هذه القاعدة الجماهيرية ولديها أفراد يكرسون كثيرًا من وقتهم لتحقيق أهداف مختلف شرائح الناخبين الجمهوريين (أو إرضائهم على الأقل). ويتولى كارل روف الإشراف على المشرفين.

قليل من السياسيين الفعّالين يحظون بمثل هذه العلاقة الحميمة مع الرئيس التى حظى بها روف مع بوش. فبوش يفكر كثيرًا فى مستشاره لدرجة أنه منحه لقبًا بل لقبين: «الولد العبقرى» و«زهر الروث». ويؤدى روف دورين أيضًا. ففى الماضى كان هناك صناع سياسات مقربين بصورة غير عادية من الرؤساء ـ فقد عاش هارى هوپكنز فى البيت الأبيض فى عهد روزڤلت لمدد طويلة ـ ولكن لم يكن لهم صلة كبيرة بالأعمال القذرة، كاختيار المرشحين السياسيين وتحديد السياسة الانتخابية. وعلى الجانب الآخر، كان هناك مستشارون سياسيون من أمثال لى أتواتر، وفى عهد كلينتون كان هناك چيمس كارڤيل الذى ظل بعيدًا عن تفاصيل رسم السياسات. أما روف فيقوم بالدورين معًا. فيمكن العثور على بصماته على كافة قرارات بوش الأكثر إثارة للجدل، من ضجة أبحاث الخلايا الجذعية إلى فرض ضريبة جمرك على الصلب. وهو فى الوقت نفسه الرئيس الفعلى لـ «اللجنة القومية الجمهورية» والمسئول عن المرشحين الجمهوريين وهمزة الوصل الرئيسة بحركة المحافظين.

ويتمتع روف بمعرفة موسوعية بتلك الحركة. ومما يدعو للدهشة كم أعضاء القاعدة الجماهيرية ممن يجوبون البلاد بين «أمة اليمين» ولهم صلة مباشرة بروف. ومن نشطاء

«مؤتمر العمل السياسى المحافظ» من تباهى ذات مرة بين أقرانه بأنه يحتفظ برقم هاتف روف الخلوى على النغمات المثيرة التى يتباهى سائر الطلاب بوضع رقم المطربة بريتنى سبيرز عليها.

ومهمة روف معقدة بسبب هذا التنوع غير العادى لهذه الأنشطة. فإذا زرنا «مؤتمر العمل السياسى المحافظ» لوجدنا أكشاكًا تعلن عن كل شىء من الإبرة للصاروخ. وولاء النشطاء لا يتجه لـ «حركة المحافظين» بقدر ما يتجه لقضية من ألف قضية مختلفة ـ كالإبقاء على علَم الاتحاد [الكونفيدرالى»] القديم أو حظر الإجهاض أو خفض ضرائب الكسب على رأس المال. والتشبيه الذى يقفز إلى الذهن مرة أخرى هو الجيش، ولكنه جيش من العصور الوسطى هذه المرة. ففى حين يضع الملك جورج بوش الابن لواءه فى وسط الخط، فإن معظم قواته يرتدون زى قضايا أخرى.

يمكن تقسيم هذه القوات إلى مجموعتين رئيستين: متمردون على الحكومة ومحافظون اجتماعيون. المتمردون يريدون وضع حد لسيطرة واشنطن على حياتهم وأسلحتهم وجيوبهم، بينما يريد المحافظون الاجتماعيون أن يقلبوا ما يعتبرونه تدهورًا ثقافيًا وتحللاً اجتماعيًا. وتمكن كل من روف وبوش بصورة عامة من إرضاء هاتين المجموعتين (ولو أن الجناح المناهض للحكومة والمحافظون الاجتماعيون يتململان أحيانًا). ومع ذلك، فمن الواضح أيضًا أن كلتا المجموعتين تتخذان من العالم موقفًا أكثر تطرفًا من موقف بوش. فـ «التكساسى السام» قد يبدو متطرفًا يمينيًا فى باريس الفرنسية؛ إلا أنه فى باريس التكساسية قد يبدو كفتاة مدللة.

حكومة أصغر الآن

العداء تجاه الحكومة هو غرام اليمين الأمريكى. ويتخذ هذا العداء أشكالاً عدة، من دعاة بقاء مشوشين مخبولين، يعيشون فى كهوف تحيط بها أسلحة آلية ومؤن عسكرية، إلى جماعات نقاش تناقش كتاب روبرت نوزيك « الفوضى والدولة والمدينة الفاضلة ـ Anarchy, State and Utopia». وأوشك المصابون بعقدة العظمة والارتياب بأن تكون لهم اليد العليا فى عهد كلينتون. أما فى عهد بوش فالمزاج أهدأ كثيرًا.

وهذا أمر غريب فى ظاهره، لأنك إذا كنت تكره الحكومة الوحش، فأنت بالضرورة تكره رئيسًا يغذى الوحش. فبوش سمح بارتفاع الإنفاق إلى عنان السماء، وفرض الضريبة على الصلب، وأوجد عشرين ألف موظف فيدرالى من خلال «فدرلة» أمن المطارات، ووقع أكبر مشروع قانون زراعى فى التاريخ، ودعم حظرًا على الأسلحة الهجومية، وتعدى ـ كما يرى المحافظون ـ على حقوقهم فى «التعديل الدستورى الأول» بتوقيعه قانون تمويل حملات انتخابية «ليبرالى». فكيف يتحاشى البيت الأبيض تمردًا شاملاً؟

هناك إجابة تقول إن اليمين أصبح أقل ـ قليلاً ـ إحساسًا بالاضطهاد. وحتى قبل انتخاب بوش، أدرك بعض المحافظين المناهضين للحكومة أن الأمور أفلتت وخرجت عن السيطرة. وجاء تفجير مدينة أوكلاهوما واستوقف الناس ليفكروا، وأوحت رئاسة نيوت جينجريتش لمجلس النواب بحدود الغضب كإستراتيجية سياسية. وبعد ١١ سبتمبر، أدرك الناس ـ حتى حتى المتحمسين للبنادق فى مونتانا ـ أن الموازنة بين الأمن والحرية بحاجة للضبط فى اتجاه الأمن. أما الإجابة الضمنية فهى أن الفصائل المعادية للحكومة لا تزال تعتبر بوش «واحدًا منا». وتمكن بوش من تحقيق ذلك بإلقاء بعض اللحم الأحمر لهم ليقضموا فيه، ولكن الأغلب بأهن ظل يلوح بأنه على وشك أن يفعل. وينطبق ذلك على المجموعات الثلاث الأكبر من المحافظين المعادين للحكومة الكبيرة: الصليبيون المعادون للضرائب، ونشطاء حقوق حمل البنادق، ونشطاء حقوق الملكية.

حظى اليمين المعادى للضرائب ـ وهو جناح الحزب الذى تمرد على جورج بوش الأب ـ بكم من اللحم الأحمر أكبر من غيره. فثبت بوش أقدامه بخفضين ضريبيين هائلين فى ٢٠٠١ و٢٠٠٣م، ورزمة أصغر فى ٢٠٠٢م. وعملت إدارته عن كثب مع جماعتى ضغط بواشنطن: جماعة «أمريكيون من أجل الإصلاح الضريبى» بزعامة جروفر نوركويست (والتى وصفنا فى المقدمة لقاءها صباح كل أربعاء) و«نادى النمو» بزعامة ستيف مور. والصلات بهاتين الجماعتين شخصية وتنظيمية وأيديولوجية. وروف ونوركويست صديقان منذ سنوات. وساعد روف فى جمع تبرعات لجماعة «أمريكيون من أجل الإصلاح الضريبى» ويواظب على حضور لقاء الأربعاء مرات عدة فى السنة. وتعاون الرجلان فى كل شىء، من بناء حركة مناوئة للضرائب فى الولايات

الهامشية مثل غرب ڤيرچينيا وميزورى وشمال كارولينا، إلى تجنيد الأقليات العرقية. فعلى سبيل المثال، أعطى روف تأييده لـ «معهد السوق الإسلامى الحر» وهو تنظيم أنشأه نوركويست فى سنة ١٩٩٨م لاستقطاب المسلمين إلى المعسكر الجمهورى. ويقال إن نوركويست ساعد فى إقناع روف بأن تقليص ضريبة الأرباح - وهو تغيير ضريبى كان سيعود بمبلغ هائل من المال على الأمريكيين الأثرياء - يمكن أن يكون قضية شعبية، لأن نصف الأمريكيين و٧٠٪ من الناخبين يملكون أسهمًا فى شركات.

وتمتد الصلات التكتيكية إلى التشريع. فقبيل عطلة مجلس النواب فى فصح ٢٠٠٣م، ساور القلق نائبين جمهوريين معتدلين بمجلس الشيوخ هما أوليمپيا سنو عن ولاية مين، وچورچ ڤوينوڤيتش عن ولاية أوهايو، من احتمال حدوث عجز أكبر فى الموازنة، فدفعا مجلس النواب للنزول بخفض الضرائب الثانى الذى تقدم به بوش إلى النصف، فخفضاه إلى ٣٥٠ مليار دولار فقط فى مدة عشر سنوات. وحمل بوش رسالته إلى الريف، فأوفد المسئولين إلى ٢٦ ولاية للضغط من أجل خفض ضريبى يقدر بمبلغ ٥٥٠ مليار دولار على الأقل. وانطلقت أيضًا؛ قاعدة مور ونوركويست إلى العمل وسخروا من القول بأن المعتدلين يدافعون عن الاستقامة فى الإنفاق متسائلين: ألم تبد أوليمپيا سنو حماسًا يقترب من حماس الديمقراطيين للإنفاق الحكومى؟ كما خرجوا بفكرة بارعة للالتفاف حول سقف الـ ٣٥٠ مليار دولار. فلم يكن السقف ينطبق إلا على المبلغ غير القابل للعرقلة (أى ما يمكن تمريره بأغلبية ٥١ صوتًا بمجلس الشيوخ بدلاً من الحاجة لستين من أعضاء المجلس). وأشاروا إلى أن القرار الخاص كان أيضًا يسمح بأكثر من ألف مليار دولار من الخفض الضريبى القابل للعرقلة. فلم لا تدرج الأجزاء المقبولة من الخفض الضريبى ضمن هذه الشريحة الثانية؟ فهل من المؤكد حينها أن يصوت ستون من أعضاء مجلس الشيوخ لصالحه؟ حينئذ يمكن استغلال مبلغ الـ ٣٥٠ مليار دولار فى استبعاد ضريبة الحصة الأكثر إثارة لجدل. ولم يحقق هذا التخطيط نجاحًا كاملاً، ولكنه بين الذكاء التكتيكى الذى تمتع به اليمين المؤيد للخفض الضريبى.

وتمت محاكاة هذا النوع من التكتيك فى عواصم الولايات. فمعارضة الضرائب من أفضل السبل لتوحيد أى حزب جمهورى محلى مهما كان ما به من اختلال فى الأداء.

كما أنه مغرٍ فى المشروعات التجارية. فمع أن البيت الأبيض فى عهد چورچ بوش الابن كان مكتظًا بمسئوليه من كبار رجال الأعمال، أصر روف على استمالة أصحاب المشروعات الصغيرة. وتمت مغازلة بضع هيئات منها «الاتحاد القومى للمشروعات المستقلة». وكما سبق أن رأينا فى الفصل الرابع، فإن «الاتحاد القومى للمشروعات المستقلة» يعارض كلاً من الإنفاق الحكومى وفرض اللوائح منذ مشروع «هيلارى كير» فى سنة ١٩٩٤م. فهى هيئة أكثر حدة من مثيلاتها من هيئات الأعمال الكبرى، ويضم حوالى ٧٥٠٠ مرشح فى انتخابات الولايات والمحليات. وأثبتت الهيئة التى تمثل ستمائة ألف من المشروعات الصغيرة أنها حليف مخلص لبوش فى كافة القضايا، بدءًا من الحد من اللوائح إلى الإصلاح الضار إلى التخلص من «ضريبة الوفاة». فيصر البيت الأبيض على دعوة أعضاء «الاتحاد القومى للمشروعات المستقلة» كلما تحدث الرئيس عن الاقتصاد.

البنادق والأصوات الانتخابية

المجموعة الثانية من المحافظين المعادية للحكومة الكبيرة تعمل تحت شعار الحق فى حمل البنادق. فيتنافس «الاتحاد القومى للبنادق» بأعضائه البالغ عددهم أربعة ملايين مع «الاتحاد الأمريكى للمتقاعدين» على لقب أنجح جماعة استقطاب (لوبى) فى البلاد. ويمتلك التنظيم كافة أدوات التأثير الحديث: مكتب شديد التطور فى كاپيتول هيل، وإدارة تسويق عن بعد، ورئيس مرموق من نوعية وين لاپيير. إلا أن أهم موارده التزام أعضائه. ويضم «الاتحاد القومى للبنادق» مليون مسئول سياسى على مستوى الدوائر الانتخابية فى كافة أنحاء البلاد. وفى الانتخابات، يمكنه حشد ٩٥ ٪ من قاعدته للتصويت فى بلد يحجم ٥٠ ٪ من سكانه عن التصويت. معنى هذا أن التنظيم يمكن أن يحدث فارقًا كبيرًا حين تضيق الفروق بين المتنافسين فى أية انتخابات ـ بل إن موقفه ازداد أهمية بعد اضمحلال التحالف المسيحى. وفى الوقت نفسه، عزز الاتحاد صلاته بالعالم المحافظ على اتساعه بتعيين كلاً من جروڤر نوركويست وداڤيد كين (رئيس «اتحاد المحافظين الأمريكيين») لعضوية مجلس مديريه.

يصف لاپيير انتخابات ٢٠٠٠م بأنها أهم انتخابات فى تاريخ «التعديل الثانى». وكانت إدارة كلينتون أبعدت هذا الاتحاد عن البيت الأبيض لمدة ثمانى سنوات، وأيدت حظر بيع الأسلحة الهجومية وفرض القيود على البنادق، وخشى الاتحاد من أن يواصل آل جور سياسة كلينتون المعادية للحق فى حمل البنادق، ويتمكن فى النهاية من إمالة اتزان المحكمة العليا ضد «التعديل الثانى». (الحقيقة أن موقف جور كان نموذجيًا إلى حد ما بالنسبة لديمقراطى جنوبى طموح. وحين كان عضو مجلس النواب من أرياف تينيسى، أيد الحق فى حمل البنادق، ثم ساند إجراءات عدة للسيطرة على الأسلحة النارية بعد أن ارتقى فى كوادر الديمقراطيين، وعندما ضمن ترشيح حزبه سعى لاستمالة أصوات الذكور من الطبقة العاملة البيضاء فى ولايات الغرب بالمراوغة حول الحق فى حمل البنادق). ولم يكن «الاتحاد القومى البنادق» يثق فى آل جور على الإطلاق، فى حين أنه اعتبر چورچ بوش الابن صاحب سجل نموذجى بتوقيع إجراءين قانونين يؤيدان حمل البنادق فى تكساس، يسمح أحدهما للناس بحمل أسلحة غير ظاهرة والآخر يجعل من الصعب على الحكومات المحلية مقاضاة صناع البنادق. وشارك لاپيير فى رئاسة مهرجان «اللجنة القومية الجمهورية» جمع أكثر من ٢١,٣ مليون دولار لانتخاب بوش. ولعب «الاتحاد القومى للبنادق» دورًا كبيرًا فى خسارة آل جور فى ثلاث ولايات على الأقل، هى أركانسو وتينيسى ووست ڤيرچينيا.

ولكن ما العائد الذى يعود على الاتحاد من كل هذا الجهد؟ فى حملة انتخابات ٢٠٠٠م، وقع كاين روبنسون نائب رئيس «الاتحاد القومى البنادق» فى غلطة فادحة؛ حيث ضبط على شريط ڤيديو وهو يباهى قائلاً: «لو فزنا سيكون لنا رئيس . . . رئيس نعمل انطلاقًا من مكتبه . . . صلات ود غير عادية». ومنذ ذلك الحين أصبحت إدارة بوش تحرص على النأى بنفسها عن الاتحاد. ولم يسند لأحد من الاتحاد منصب رفيع فى البيت الأبيض. ويقدم بوش تأييدًا فاترًا للسماح للطيارين بحمل أسلحة مخفية (وهو أمر لا يمل الاتحاد الحديث عنه منذ ١١ سپتمبر) ولم يتراجع عن وعده بتوقيع حظر الأسلحة الهجومية، وهو موقف يسعد أمهات أمريكا بقدر ما يغضب نشطاء حمل الأسلحة المتشددين.

ومع ذلك، فمن الخطأ أن نستنتج أن «الاتحاد القومى للبنادق» كان يضيع وقته، إذ تمكن من صد أكبر كابوس تعرض له، وهو وجود محكمة عليا مستعدة لإسقاط

«التعديل الثانى». كما عزز سيطرته على الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب. ووعدت إدارة بوش بتأييد الأولوية التشريعية الأساسية «للاتحاد»، أى وضع قانون يحمى صناع البنادق وتجارها من الدعاوى القضائية. وحتى وعد بوش بتوقيع حظر على الأسلحة الهجومية يعد شيئًا أقرب للتمثيل الصامت. إذ وعد توم ديلاى زعيم الأغلبية بمجلس النواب ألا يدرج التشريع ضمن أعمال المجلس، مستندًا لعدم وجود حماس لتلك الخطوة فى المؤتمر الحزبى الجمهورى البرلمانى، ويرفض بوش ممارسة أى ضغط على زملائه الجمهوريين؛ حتى يغيروا موقفهم. والنتيجة تسوية سياسية ممتازة بالنسبة للجمهوريين فاز فيها بوش بنقاط لدى الناخبين المعتدلين بالتباهى باستعداده للتخلص من الأسلحة الهجومية، وحصل ديلاى على تأييد حملة الأسلحة بضمانه عدم وصول مشروع قانون كهذا إلى مكتب الرئيس.

وسعد «الاتحاد القومى للبنادق» بصفة خاصة بأول نائب عام فى إدارة بوش؛ حيث اعتَبر چون أشكروفت الذى كان على رأس متلقى أموال الاتحاد فى أثناء خوضه انتخابات عضوية مجلس الشيوخ لسنة ٢٠٠٠م، «نسمة هواء منعشة» بعد سنوات چانيت رينو الكئيبة. وفى مايو ٢٠٠٢م وفى انقلاب على عقود من العقيدة الرسمية، دفعت وزارة العدل أمام المحكمة العليا بأن «التعديل الثانى» يحمى حقوق الأفراد فى حمل الأسلحة وليس فقط حقًا جماعيًا للولايات فى تعبئة ميليشيات.[1] فاتخذ عشرات من الناس هذا التفسير للتعديل الثانى سببًا لتقويم قناعاتهم فيما يتعلق بالبنادق. وسعى أشكروفت لمحو سجلات مبيعات البنادق فى قواعد البيانات القومية بعد أربع وعشرين ساعة، وسعى لمنع مكتب التحقيقات الاتحادى من استغلال هذه السجلات فى تحقيقاته المتعلقة بالإرهاب ـ وكلتاهما سياستان عجيبتان ـ غداة ١١ سبتمبر. كما رفض تجديد الحظر على الأسلحة الهجومية، فيما عد تراجعًا عن الموقف الذى اتخذ فى جلسة التصديق على تعيينه.

حديقة ليبرتى

سبق أن أشرنا إلى أن جيش چورچ بوش الابن يتكون من قوات ترتدى زى قضايا أخرى، مثل «الاتحاد القومى للبنادق». إلا أن التشبيه لا يزال يمكن تعزيزه. فالاتحاد

أخرى، مثل «الاتحاد القومى للبنادق» نفسه لا يكتفى بوضع قواته تحت لواء بوش، بل يضيف إليهم مجموعة غير مترابطة من الأقارب من أرجاء البلاد.

تعد «حديقة ليبرتى» واحداً من مبان إدارية عدة فى حى «بلفيو» الذى يعد من ضواحى سياتل الراقية. ويضم المبنى إعلانين لمايكروسوفت التى تقع على بعد عشر دقائق من المكان. ويمكن للمراقب الواعى أن يدرك وجود ملصقات على مصدات السيارات فى ساحة الانتظار عليها عبارة «المزيد من الأسلحة معناه خفض معدل الجريمة»، ولكنك لا تدرك كنه «حديقة ليبرتى» إلا بعد أن تدخل المكاتب. فى أحد المكاتب، نجد متطوعين فى «لجنة مواطنين من أجل حق الاحتفاظ بالأسلحة وحملها» ينظمون أدوات إعداد رسائل بريدية مؤيدة للأسلحة، منها المزيد من ملصقات مصدات السيارات («التعديل الثانى هو أمن الوطن»، «لا تضايقنى، فأنا أعيد تعمير السلاح بالزخيرة»). واللجنة فرع من «هيئة التعديل الثانى»، لكن «حديقة ليبرتى» هى أيضًا «مركز الدفاع عن الأعمال الحرة» وعدداً من الإدارات الخدمية الخاصة بالقضايا التحررية والمحافظة التى تنظم حملات بريد مباشر وتسويق عن بعد وإعلانات.

إن «حديقة ليبرتى» من إنشاء آلان جوتليب. وتضم إمبراطوريته أيضًا شبكة إذاعات قومية تضم أكثر من مائة محطة والعديد من الأعمال المطبوعة والعديد من جماعات الاستقطاب المؤيدة لحمل الأسلحة فى ساكرامنتو، وولاية نيويورك، وواشنطن العاصمة. وتقدر موازنة هذه الإدارات أكثر من عشرة ملايين دولار. كما أن جوتليب عضو بمجلس إدارة «اتحاد المحافظين الأمريكى» الذى يدير «مؤتمر العمل السياسى المحافظ».

يعترف جوتليب بأنه كان مهووسًا بالأسلحة. وهو يهودى ولد فى لوس أنچيليس ولكنه نشأ فى نيويورك. وأزعج والديه الديمقراطيين بعمله لصالح حملة چون ليندساى الانتخابية لمنصب عمدة نيويورك فى سنة ١٩٦٥م، ولو أنه سرعان ما ندم على عدم تأييده منافسه المحافظ ويليام بكلى، فانخرط فى «أمريكيون شبان من أجل الحرية» بقيادة بكلى. وبدأ اهتمامه بموضوع الأسلحة من منظور تحررى. ففى سنة ١٩٧٤م، حين غضب جوتليب من إقدام نيكسون على قوانين الأجور ونزاعه مع «الاتحاد القومى للبنادق» بسبب خنوعه، وبمبلغ الخمسمائة دولار الذى لم يكن يملك

غيره، أنشأ «هيئة التعديل الثانى» فى مكتب آيل للسقوط فى سياتل. وتعتبر هذه الهيئة ـ التى تضم ستمائة وخمسين ألف عضو ـ نفسها هيئة دفاع تعليمية وقانونية فى المقام الأول، ولكنها اتخذت منحى أكثر عدوانية من نظيرتها الأكبر حجمًا «الاتحاد القومى للبنادق» وتفوقت فى مجال استعمال البريد المباشر فى دعم قضايا الأسلحة.

كما يجسد مبنى «حديقة ليبرتى» سمة أخرى من سمات اليمين، وهى استعداد قاعدته الجماهيرية للكفاح فى سبيل قضايا متباينة فى وقت واحد. فمعظم أنصار الأسلحة لهم رؤية غامضة تجاه الضرائب. كما أنهم يؤيدون حقوق ملكية أصحاب مراعى الماشية فى الغرب (كما يؤيد أصحاب المراعى جماعة الأسلحة) ـ وهو سبب وجود رون أرنولد و «مركز الدفاع عن الأعمال الحرة» بالمكتب المجاور لجوتليب. أنشأ جوتليب جماعة حقوق الأملاك هذه فى السبعينيات، لكنها، وباعترافه، لم تبدأ فى العمل الفعلى إلا بعد أن شارك أرنولد فيها فى سنة ١٩٨٤م. يقول أرنولد ـ وهو مدير سابق لشركة بوينج ـ إنه كان من نشطاء «نادى سييرا» حين كان لايزال حركة «محافظة». ولكنه غير موقفه حين تحول إلى حركة «بيئية» فى السبعينيات (والتى يصفها بأنها «موجهة لكره الرأسمالية»). ومنذ ذلك الحين، أخذ يعارض قوانين التقسيم إلى مناطق و «مشروع قانون الأنواع المعرضة للخطر» و«مشروع قانون المياه النظيفة» و «خدمة الغابات» وجهود عديدة من جانب ملاك الأراضى على المستوى القومى من زيادة سلطة الحكومة على أصحاب مزارع الماشية.

ويعد مركز أرنولد الذى يضم خمسة عشر ألف عضو حاليًا، جزءًا من تجمع آخر لليمين المناهض للحكومة. وحركة حقوق الأملاك تجمع بين عدد من المصالح المتباينة: أصحاب مراعى الماشية ومزارعون (لا سيما فى الغرب) ومتحمسون للدخول بسياراتهم إلى داخل المتنزهات القومية وشركات أخشاب كبرى وصيادون وعمال مناجم. كل هؤلاء يجمع بينهم عداء مشترك لامتلاك الحكومة كثيرًا من الأراضى فى الغرب، وكلهم يخشون من استعداد البيروقراطيين لتجاهل حقوقهم بتوصية من البيئيين من ساكنى المدن. ويريد بعض أنصار حقوق الملكية خصخصة الأراضى العامة؛ ولا يريد معظمهم سوى زيادة الحق فيها ودفع تعويضات أكبر للملاك الذين يُمنعون من تنمية أملاكهم بسبب القوانين البيئية، والحد من سيطرة اللوائح الحكومية،

لا سيما تلك التى تحظر التعدين وقطع الأخشاب. وأثبتت صورة الريفيين الأمريكيين الكادحين، وهم فى صراع حياة أو موت مع البيئيين الحضريين ممن يهتمون بالبوم الأرقط دون العمال الريفيين، أنها تعود على الجمهوريين بكم هائل من أصوات الناخبين فى أرجاء الغرب الأمريكى.

وأنصار حقوق الملكية لديهم ـ كحملة الأسلحة ـ تعديلهم الدستورى الخاص بهم (الخامس، وهو ليس فقط ما يضمن الحق فى الصمت بل أيضًا يحد من سلطة الحكومة فى السيادة الزائدة) ولديهم شبكة التنظيمات والنشطاء الخاصة بهم. فهناك جماعة «مديرو المراعى» تمثل مصالح أصحاب مراعى الماشية؛ وتقدم «المؤسسة القانونية لولايات الجبل» المحامين؛ ويعتبر «معهد المشروعات التنافسية» صوتًا عاليًا فى واشنطن العاصمة؛ ويقوم «مركز الأبحاث الاقتصادية السياسية» فى بوزمان، ولاية مونتانا والمعروف عالميًا باسم PERC بتقديم الذخيرة الفكرية، ويورد الوقائع المؤيدة للنزعة البيئية لحرية السوق. ومن ناحية أخرى، فاليمين التحررى ليس موحدًا تمامًا حول موضوع حقوق الملكية. ولا يزال أرنولد يعبر عن سخطه على معهد كاتو الذى يرى أنه يركز أكثر من اللازم على مياه المراعى «المدعمة». وتعد فكرة إمكانية أن تكون للفرد ملكية خاصة على أرض مملوكة للدولة بالنسبة لحركة حقوق الملكية بالغرب الأمريكى مبدأ غير قابل للنقاش.

وأنصار البيئة يرفضون حركة حقوق الأملاك باعتبارها أداة فى يد كبار رجال الأعمال. وبعض الحالات الأولى كانت تقام فى الحقيقة نيابة عن كبرى شركات الأخشاب والتعدين. ولكنها فى معظمها تتولى الحالات الخاصة بالبسطاء، وهب نشطاؤها للعمل حين وجدوا نوعًا أو آخر من الظلم. فأشهر نشطاء الحركة، وهو تشك كشمان أنشأ «الاتحاد الأمريكى لحقوق الأراضى» فى سنة ١٩٧٨م بعد أن حاولت «إدارة المتنزهات القومية» أن تفرض أمر شراء إجبارى على الشاليه الخاص به فى يوزمان. وتضم جماعته حاليًا ٢٦ ألف عضو. ولاصق إعلانات الحركة، وين هيج، من أصحاب مراعى نيڤادا، يكافح من أجل الحصول على تعويض عن حقوق مياه

قديمة انتزعتها منه الحكومة الاتحادية منذ عشرين سنة. (سأل هيج اثنين من موظفى إدارة الغابات حين التقاهما وهو يرعى ماشيته: «لم تفعلون ذلك؟» فأجابا: «لأن هذا ما أمرنا به»).

فى فترة رئاسته الأولى، لم يقم چورچ بوش الابن إلا بما يكفى لإبقاء حركة حقوق الأملاك الغربية فى صفه. ولعله لم يحدث أية تغييرات جذرية فى القانون. إلا أن چال نورتون وزير الداخلية وريتشارد پومبو الرئيس الجمهورى للجنة الموارد التابعة لمجلس النواب ومايك ليڤيت ثانى رئيس لهيئة حماية البيئة فى عهد بوش (بعد كريستين تود ويتمان) كانوا متعاطفين مع القضية. وضع بوش حداً لسياسة كلينتون البيئية، وأنشأ بضع حدائق قومية جديدة وسمح لعربات الثلج بالزحف عائدة إلى يلوستون وعمل من أجل فتح المحمية القطبية أمام حفارات التنقيب عن النفط وحث وزارة الدفاع على الحصول على إعفاء من مشروع قانون الأنواع [المخلوقات] المعرضة للخطر (حتى يسمح للقوات المسلحة باستغلال مراعيها بحرية أكبر). ولم تكن هذه انتصارات حقيقية لحقوق الأملاك، بل كانت هزائم للقضايا البيئية، وهما سيان بالنسبة للعديد من أهل الغرب الأمريكى.

الرب بجانبى

من مزايا التعامل مع المحافظين المناهضين للحكومة من أمثال من احتشدوا فى «حديقة ليبرتى» بالنسبة لبوش وروف، هو أنهم ـ وعلى الرغم من حدتهم ـ يدركون أن السياسة فن الممكن. والعديد منهم من رجال الأعمال، وأصحاب الأعمال بطبيعتهم صناع صفقات. فجوتليب وأرنولد مثلاً يصعب وصفهم بالمحبين لرئاسة بوش. فالأول يساوره القلق من تنامى حجم الحكومة غداة ١١ سپتمبر؛ فكان يؤثر أن تكون للوكالات الحكومية الجديدة تواريخ محددة لانتهاء أعمالها، فتدفع مجلس النواب لتقرير إلغائها. كما اعترض على سماح اليمين لچون أشكروفت بالتطفل على حياة الناس بهذه الحرية. وفى الوقت نفسه، فهو يعى الضغوط التى يتعرض لها بوش للحفاظ على وحدة الحزب الجمهورى ـ بالصورة نفسها التى يرى بها أرنولد الحاجة لانتزاع أصوات الناخبين المعتدلين من أنصار البيئة على الجانب الآخر من أمريكا. وفى

انتخابات ٢٠٠٤م، وقفت جماهير «حديقة ليبرتى» وهى راضية إلى جانب «الاتحاد القومى للبنادق» تحت لواء بوش.

أما المحافظون الاجتماعيون فاستبداديون. فهم يحتشدون وراء قضيتين مقدستين بالنسبة لهم: «الحياة» (التى يجب إنقاذها من دعاة الإجهاض) و «الأسرة» (التى يجب إنقاذها من الشواذ). فإن كنت تؤمن بقدسية الحياة، فستعتبر الإجهاض قتلاً، حتى إن أجرى لأم اغتصبت. وإن كنت تؤمن بأن الشذوذ خطيئة، فلا يمكن لك أن تعقد صفقة تسمح للشواذ بأن تكون لهم نقابات مدنية، ناهيك عن الزواج الكامل.

ولسوء حظ بوش، فإن هذه القضايا الاجتماعية هى التى تنفر العديد من الناخبين المتأرجحين، لا سيما نساء الضواحى. وقد يكون من الصعب أن تعادى الحكومة أكثر من اللازم فى أمريكا (ولو أن نيوت جينجريتش تمكن من ذلك)؛ ولكن من السهل أن تكون محافظًا فيما يتعلق بالإجهاض مثلاً أو حقوق الشواذ، وهو ما اكتشفه الجمهوريون فى كاليفورنيا فى التسعينيات. كل هذا جعل من المحافظين الاجتماعيين جماعة أكثر مراوغة من أن تبقيهم إدارة بوش فى صفها. فعلاقة بوش بالمحافظين الاجتماعيين أشبه بالزيجة المتعبة، فكلها نوبات غضب واعتذارات باكية وتكشير طويل الأجل وألعاب نارية من حين لآخر وانفصال تجريبى وتأكيدات من كل طرف بأنه لا حياة له بدون الآخر.

وقعت نوبة غضب من هذه فى أبريل ٢٠٠٣م بسبب رد فعل البيت الأبيض إزاء تصريحات أدلى بها أحد كبار المحافظين الاجتماعيين هو ريك سانتورم. ففى لقاء مع ثالث شخصية جمهورية بمجلس الشيوخ، ربط الشذوذ بتعدد الأزواج وتعدد الزوجات وزنا المحارم والزنا، وأكد أن اللواط «يتنافى» مع الأسرة السليمة، وأعلن: «ليست عندى مشكلة مع الشذوذ، ولكن عندى مشكلة مع تصرفات الشواذ». كان هذا مجرد تعبير من سانتورم عن عقيدة الجمهوريين، فبرنامج الحزب يحيد عن مساره ليقدم تعريفًا للزواج يستبعد زيجات الشواذ. إلا أنه حين تلقى ضربات متوقعة مما يسميه الجمهوريون الإعلام الليبرالى، لم يسارع بوش والبيت الأبيض للدفاع عنه كما توقع، مما أثار حفيظة المحافظين الاجتماعيين. فوصف فيليس شلافلى دفاع النظام بالرخو، بينما وصمه پول ويريش بالفتور.

كان بعض هذا الغضب تراكميّا. فكان المحافظون الاجتماعيون يخشون من أن تكون المؤسسة الجمهورية تعد للتخلى عنهم بسبب قضية زواج الشواذ، وكل ذلك بسبب حاجة بوش لجذب أصوات المعتدلين. وحتى قبل أن يفتح سانتورم فمه، كان المحافظون الاجتماعيون يشتاطون غضبًا بسبب لقاء سرى تم فى مارس ٢٠٠٣م بين مارك راسيكوت رئيس الحزب الجمهورى و «حملة حقوق الإنسان» وهى جماعة استقطاب من الشواذ. وكل هذا كان جزءًا من تيار مزعج من منظورهم، وهو رفض بوش دعم أهم مؤسسات المجتمع. ألم يسبق له أن طهر مؤتمر ٢٠٠٠م بفيلادلفيا بكل هدوء من الخطاب المعادى للشذوذ؟ ألم يسبق له أن عين عددًا من الشواذ علنًا فى إدارته ومنهم سفير ورئيسان ناجحان لإدارة سياسات الإيدز القومية؟

وبعد واقعة سانتورم، التقى قادة المحافظين الاجتماعيين راسيكوت ليعلنوه سخطهم، وحصلوا على وعد منه بمقابلة مجموعة من الشواذ السابقين ممن تم «تقويمهم». إلا أن المتدينين كانوا لا يزالون غاضبين. فهدر جارى باور قائلاً إن «الجماهير لن تساند التضارب المتواصل حول هذه القضايا الأخلاقية». وأعلن خليفته فى رئاسة «مجلس البحث الأسرى» كينيث كونور أن «البيت المنقسم على نفسه لا يصمد». وصرح القس دون ويلدمون الذى يملك حوالى مائتى محطة إذاعية أن الجمهوريين لو استمروا فى مغازلة الشواذ «فسنرحل».

واسترد المحافظون الاجتماعيون أنفاسهم عندما دعا بوش فى النهاية بإجراء تعديل دستورى بحظر زواج الشواذ، وانضموا إليه بأرقام قياسية فى سنة ٢٠٠٤م. إلا أن هذا لم يمنعهم من القلق حول خيانات أخرى. فلماذا يصف الإسلام بأنه دين سلمى مثلاً؟ ولا يزالون خائفين من أن يعين بوش شخصًا معتدلاً كألبرتو چونزالس رئيسًا للمحكمة العليا إذا ما أحيل أحد قضاتها الحاليين للتقاعد. يقول فيليس شلافلى: «لن نتحمل وجود (داڤيد) سوتر آخر» فى إشارة إلى قاضٍ عينه چورچ بوش الابن فى سنة ١٩٩٠م، واتخذ خطًا ليبراليّا إزاء جل الموضوعات ومنها الإجهاض. فتقول إحدى النكات الشائعة بين المحافظين: «كيف تتهجى «سوتر» بالإسپانية؟ «چونزالس»».

والغريب فى الأمر أن المحافظين الاجتماعيين يعترفون بأن بوش أفضل رئيس حظوا به. وهذا مرجعه ـ فى بعض منه ـ إلى أنهم يعتقدون أنه «واحد منهم» أى رجل صالح.

وحظى بوش طوال مدتى رئاسته بتقدير عال للغاية بين المحافظين المسيحيين. يقول داج ويد الإيڤانجليكى الذى عمل مع بوش الأب وابنه فى فيلم وثائقى ضمن برنامج Frontline بقناة PBS حول انتخابات ٢٠٠٠م:

> كل ثقافة فرعية لها لغتها ونحوها. فأنت تتعرف فوراً على من ينتمى إلى ثقافتك الفرعية من مجرد النبر على أحد مقاطع اللفظ أو من لفظ خارج السياق. والثقافة الفرعية الإيڤانجليكية ليست استثناء فى ذلك. فحين يلتقى چورچ بوش الابن مع المسيحيين الإيڤانجليكيين فإنهم يدركون فى غضون دقائق أنه واحد منهم.[٢]

وعلى الرغم من غضبه لفشل بوش فى مساندة سانتورم، فإن ويريش يعترف بأن سجل الرئيس فى القضايا الاجتماعية أفضل حتى من سجل رونالد ريجان الذى يعتبرونه قديسًا. وكما أشرنا فى الفصل الخامس، فإن بوش أعطى اليمين الاجتماعى الكثير مما يسعده: تعليم أخلاقى وتوقيع حظر على إجهاض الولادة الجزئية وحظر الاستنساخ وشبه انتصار فى موضوع الخلايا الجذعية وغير ذلك. وهم يطمحون للمزيد.

لذا فالتعامل مع المحافظين الاجتماعيين يمثل عملية ضبط توازن صعبة بالنسبة للبيت الأبيض. ومن ناحية أخرى، يدرك كل من بوش وروف ثمن التهاون فى مسألتى الإجهاض والشذوذ. كما أنهما رأيا فى انتصار أرنولد شوارزينيجر فى كاليفورنيا احتمال ظهور حركة جمهورية واسعة؛ فهذا جمهورى يؤيد الشواذ ويؤيد حرية الاختيار يكتسح ولاية كان الحزب قد ألغاها من حساباته. ومن ناحية أخرى، يستطيع المحافظون الاجتماعيون أن يلحقوا أضراراً بالغة بقضية چورچ بوش الابن إذا تقاعسوا عن الذهاب إلى صناديق الاقتراع. فحين تأمل الجمهوريون نتائج انتخابات ٢٠٠٠، اكتشفوا إحصائية مرعبة: فأربعة ملايين من المحافظين المسيحيين ممن أدلوا بأصواتهم فى سنة ١٩٩٦م لم يصوتوا فى سنة ٢٠٠٠م. وكانت عودة هؤلاء المحافظين المسيحيين فى سنة ٢٠٠٤م سبباً كبيراً لإعادة انتخاب بوش.

أمام البيت الأبيض تحد آخر لا بد من أخذه فى الاعتبار. فاليمين المسيحى لم يعد جماعة من المارقين يحتشدون أمام صناديق الاقتراع فى يوم الانتخابات. فهم داخل الخيمة الجمهورية إلى حد بعيد. وهناك ما يشبه تغيير الحرس فى الترتيب الهرمى بين صفوف المحافظين المسيحيين. وهناك مناخ عام من الإرهاق بدأ يخيم فوق بعض الأجزاء المألوفة من جسد اليمين المسيحى؛ فبعد سنوات عدة من النشاط المكثف، بدأ بعض قادة الإيڤانجليكيين يستنفدون ما لديهم من طاقة وأفكار، وبدأ إحلال مؤسسات جديدة وقادة جدد محلهم.

ويظل أفضل تنظيم فى اليمين المسيحى «التحالف المسيحى». ولا يزال هذا التنظيم الذى أنشأه رالف ريد على صلات وثيقة بالعديد من الزعماء البرلمانيين، ومن أبرزهم توم ديلاى وريك سانتورم. وفى سنة ٢٠٠٠م، قام «التحالف المسيحى» بتوزيع ما يقرب من سبعين مليون دليل انتخابى ملىء بأسماء محطات إذاعية موالية لبوش ساعدت فى وقف تمرد ماكين. إلا أن التحالف يمر بأوقات عصيبة منذ أن تركه ريد فى سبتمبر ١٩٩٧م. ولا شك أن ادعاءه بأنه لا يزال يضم مليونى عضو مبالغ فيه، وهناك بيانات أخرى تقول بأن هذا الرقم لا يزيد عن أربعمائة ألف. وانخفضت تبرعات التحالف السياسية من رقم قياسى بلغ ٢٦,٥ مليون دولار فى سنة ١٩٩٦م إلى حوالى ثلاثة ملايين فى سنة ٢٠٠٠م. كما خفض التنظيم عدد العاملين به، وألغى برنامجه لاستقطاب الأقليات والذى كان يعرف باسم «المشروع السامرى»، ومر بفترة من المتاعب القضائية، حيث ادعى العاملون الزنوج أن زعماء التحالف كانوا «غير مستريحين» لانضمام الزنوج لجلسات الصلوات. واتسم الاجتماع السنوى فى واشنطن العاصمة فى سنة ٢٠٠٠م بالفتور، وحتى القرار بالمشاركة فى تمويل المؤتمر مع مبشر تليفزيونى شهير مثل چويس ماير لم يكن كافيًا لملء المقاعد. كانت القضية الوحيدة التى أبقت على التحالف هى قضية خارجية، قضية إسرائيل.

وترددت أصداء «التحالف المسيحى» فى بقية اليمين المسيحى. وكان تقاعد كل من رالف ريد وجارى باور قد حرم الحركة من مدافعين كبيرين، فى حين أن عدم تقاعد فرسانه القدامى پات روبرتسون وچيرى فالويل حد من جاذبية الحركة، إذ أضر هذان

باليمين المسيحى حين قالا فى أعقاب ١١ سبتمبر إن الرب سمح بحدوث هجمات إرهابية لأن الولايات المتحدة باتت أمة إجهاض وشذوذ وقيم الله علمانية.

ومع ذلك، فاليمين المسيحى لا يمر بحالة ضمور بل بحالة تحول. فقاعدته الجماهيرية بدأت تتخلى عن الشعارات القديمة لتلتئم حول أخرى جديدة، لعل من أهمها «التركيز على الأسرة» وهى جماعة «كولورادو سبرينجز» التى أشرنا إليها فى المقدمة. وهذه الجماعة ليست فى شهرة «التحالف المسيحى» ولا هى سياسية بصورة صريحة، لكن لها سجلاً أفضل فى الحفاظ على نفوذها. نشأ التنظيم فى سنة ١٩٧٧م على يد چيم دوبسون. وكان دوبسون فى ذلك الوقت باحثًا أكاديميًا مغمورًا - أستاذ فى طب الأطفال بكلية الطب بجامعة سوذرن كاليفورنيا، وله كتاب جامعى يقوم بتدريسه عن صعوبات النمو وعدد من المقالات المنشورة باسمه. ثم قام بنشر كتاب بعنوان «جرأة التأديب - Dare to Discipline» وهو دليل للآباء بيعت منه أكثر من ثلاثة ملايين نسخة. وأتبعه بعشرين كتابًا جلها عن تربية الأطفال فى عالم غير متجانس، ووسع دوبسون جماعته فصارت تنظيمًا يدر عائدًا سنويًا قدره ١٣٠ مليون دولار. وتصل برامجه وكتبه وشرائط الڤيديو إلى جمهور يبلغ ٢٢ مليونًا فى أمريكا، وربما يبلغ مائتى مليون على مستوى العالم. وضخامة «حرم» جماعة «التركيز على الأسرة» الذى تبلغ مساحته ٨١ هكتارًا فى كولورادو سبرينجز، بلغت حد أن صار له رقم بريدى خاص وتفريعة خاصة من الطريق السريع.

ودوبسون ليس نشطًا سياسيًا مثل رالف ريد مثلاً. والناس فى مقر جماعته حذرون من السياسة (وليس لمجرد أن لوائح مصلحة الضرائب تحظر عليهم المشاركة المباشرة فى السياسة). ويردد دوبسون لأنصاره دائمًا أن التزامهم الأول موجه لكنيستهم. ولا يخصص للسياسات العامة من موازنة الجماعة البالغة ١٣٠ مليون دولار سوى ٥ ٪ فقط. ويقول أتباع الجماعة إن مسائل كالإجهاض يجب أن تكون قضايا أخلاقية لا سياسية. إلا أن معتقدات دوبسون الأساسية - حيث يرى أن الأسرة هى حجر الزاوية فى أى مجتمع سليم وأن هناك قوى نشطة ضدها فى أمريكا - تدفعه أن يتخذ موقفًا من الإجهاض وغيره من القضايا المشحونة سياسيًا، كالشذوذ والاستنساخ والصلاة فى المدارس. فمثلا فى أغسطس ٢٠٠٣م، وفى أثناء الجدل الدائر حول ما إذا كان يجوز السماح لكبير قضاة ألاباما روى مور بالإبقاء على نصب منحوت بالوصايا العشر

للعرض العام بالمبنى القضائى للولاية، قام دوبسون بزيارة مدينة مونتجومرى ليعلن تأييده، ووصف معركة مور بأنها «صراع ضد الطغيان القضائى». [٣] ويضم موقع الجماعة على الإنترنت «مركز العمل بالوصايا العشر» يشرح كيفية انضمام الناس إليها. [٤]

ولدوبسون نفوذ كبير فى الحزب الجمهورى. إذ ساعد مثلاً فى تأسيس «مجلس البحث الأسرى» لدعم «القيم التقليدية للأسرة» فى واشنطن العاصمة؛ وتضم حاليّا ٤٥٠ ألف عضو. وجاء أحد الأمثلة على هذه «العضلة» فى سنة ٢٠٠٢ حين حاول الجناح التجارى من الحزب الجمهورى إصلاح قوانين الإفلاس فى أمريكا. فقام تشارلز شومر، وهو ديمقراطى بمجلس الشيوخ عن نيويورك، بضم ـ بدهاء ـ بند صيغ بغرض ضرب معارضى الإجهاض. ورضى العديد من الجمهوريين بمجلس النواب بإدراج هذا البند مبدئيّا، إلا أن توم مينرى المدير السياسى لجماعة «التركيز على الأسرة» انبرى يفسر لمجلس النواب عدم رضا دوبسون. وأدان دوبسون نفسه جهود توم ديلاى لعرض مشروع القانون على المجلس للتصويت عليه. وحثت جماعة «التركيز على الأسرة» الناس على الاتصال بأعضاء المجلس وديلاى بصفة خاصة. وتم رفض المشروع. وفى سنة ٢٠٠٣م، كتب دونالد پول هوديل رئيس جماعة «التركيز على الأسرة» (الذى تصادف أن كان ممن عملوا بحكومة ريجان) رسالة إلى صحيفة «ويكلى ستاندارد ـ Weekly Srandard» شاكيّا من عرض كتاب يحث الإيڤانجليكيين على الفصل بين الدين والسياسة. كتب هوديل يقول: «الحقيقة أنه بدون العمل الجاد والأصوات الانتخابية لملايين المسيحيين، لما كانت هناك أغلبية جمهورية فى البرلمان بمجلسيه، ولما تولى الرئاسة آل بوش، ولما كان هناك سوى القليل من الحكام الجمهوريين، ولكانت حفنة ضئيلة من برلمانات الولايات فى أيدى الجمهوريين». [٥]

وكان لجماعة «التركيز على الأسرة» نفوذ فى الحزب الجمهورى المحلى. ولا يكف أعضاء الجماعة عن ممارسة محافظتهم المسيحية حتى بعد أن يعودوا إلى بيوتهم ليلاً؛ فهم يعاودون الظهور فى اجتماعات الضواحى المحلية بصفة شخصية (حيث أن لهم الحق فى ذلك). كان مينرى، على سبيل المثال، نائب رئيس الحزب الجمهورى فى مقاطعة إل پاسو (التى تضم كولورادو سپرينجز) فى المدة من ٩٧ ـ ١٩٩٩م. يقول

الجمهورى المحلى البارز الذى يتعامل مع جماعة «التركيز على الأسرة» وأعضائها بصورة اعتيادية: «فى أواسط التسعينيات، سيطر اليمين المسيحى على العديد من ضواحينا». واجتماعات الضواحى جوهر أى حزب؛ وهى فى الغالب مملة ولا يحضرها الكثيرون. إلا أن النشطاء ممن يكلفون أنفسهم عناء الحضور، هم الذين يختارون المندوبين لكى يذهبوا إلى المؤتمرات الحزبية بالمقاطعات، وهذه المؤتمرات بدورها تختار المرشحين للانتخابات الأولية. وانتهى الأمر تدريجيًا بمعظم الساسة الجمهوريين المحليين حول كولورادو سپرينجز بأن أصبحوا راديكاليين ودينيين ويمينيين، أو على الأقل يعرفون كيف يلفظون الكلمات من كتاب صلوات واحد. أما المعتدلون من «الجمهوريون بالاسم فقط» ممن يتخذون مواقف معتدلة من قضايا كحقوق الشواذ والإجهاض فعانوا مضايقات بسبب ذلك. وكان من الأهداف المحددة ميرى لو ميكپيس التى كانت عمدة كولورادو سپرينجز حتى ٢٠٠٢م، ومارسى موريسون عضو مجلس ولاية محلية. وفى سنة ١٩٩٨م أرغمت موريسون على جمع توقيعات على عريضة لوضع اسمها على ورقة الاقتراع لأنها كانت تعرف أنها ما كانت لتحصل على التأييد اللازم من المؤتمر الحزبى.

لا ينبغى المبالغة بشأن هذه «السيطرة» المسيحية. إذ تمكنت كل من ميكپيس وموريسون من صد خصومها، ولو أن موريسون تعبت وتراجعت إلى منصب عمدة مانيتو المجاورة لكولورادو سپرينجز. لكن ما حدث فى كولورادو سپرينجز يبدو أنه يحدث الآن فى أرجاء البلاد. فالمحافظون الدينيون كانوا يعتبرون طوال السنوات الثلاثين الماضية مارقين عادةً. والآن هم يذهبون بموهبتهم فى حشد الجماهير إلى اجتماعات الضواحى وما شابهها داخل الحزب. و«المحافظون المسيحيون» حسب قول مجلة Campaign & Elections يمارسون الآن إما تأثيرًا «قويًا» أو «معتدلاً» فى أربع وأربعين لجنة جمهورية على مستوى الولايات، مقارنةً بإحدى وثلاثين لجنة فى سنة ١٩٩٤م، وهى السنة التى أجرى فيها آخر مسح. وهم ضعفاء فى ست ولايات فقط كلها فى الشمال الشرقى.[٦] وليس من قبيل المصادفة أن رالف ريد عاود الظهور رئيسًا للحزب الجمهورى بولاية چورچيا.

هذا «التعميد» بالحزب، قد يعود على البيت الأبيض بكافة أنواع الصداع، ولكنه فى جوهره تصويت بالثقة فى بوش. وكان الزعماء الجمهوريون يلجأون فيما مضى إلى

المحافظين الدينيين من خلال قادتهم، أما بوش فيلجأ إليهم مباشرةً بصفته واحدًا منهم لا باعتباره رئيس حزب تصادف أن تحالف معهم. والمطبوعات والبرامج المسيحية عادة ما تمطر قيادته بالثناء. ويتعامل الزعماء الدينيون مع انتخابه باعتبارها مسألة عناية إلهية. وتباهى شبكة الإنترنت بعدد من المواقع تقوم بالدعاء للرئيس بالتوفيق.

كلية پاتريك هنرى

لبعض المحافظين موطئ قدم فى كلا المعسكرين المحافظين الرئيسين؛ ويبدو أن دافعهم الشك فى الحكومة والإيمان بالله على السواء. والجماهير التى تبدى ذلك هم «أنصار الدارسة المنزلية» أى من لا يثقون فى أن الولاية ستمد أطفالهم بتعليم إلهى.

تعد حركة «التعليم المنزلى» واحدة من أغرب قصص النجاح فى أمريكا. فحين تولى رونالد ريجان السلطة فى سنة ١٩٨١م، كان ممنوعًا بحكم القانون فى معظم الولايات، على الآباء أن يتولوا تعليم أبنائهم بأنفسهم، إذ كان لا بد من إرسالهم للمدارس. أما اليوم فهو حق قانونى فى الولايات الخمسين جميعًا، ولا يُطلب من الأطفال الذين يتعلمون فى البيوت المرور بنوع من التقييم الرسمى إلا فى ثمانى وعشرين ولاية فقط. وهناك ثلاث عشرة ولاية لا تطلب إلا أن يبلغ الآباء المسئولين بأنهم سيعلمون أبناءهم فى البيوت. وفى تكساس، لا يُطلب من الأب أن يبلغ أحدًا بأى شىء.

طبقًا لأحدث مسح قامت به وزارة التعليم (١٩٩٩م)، لا يتلقى تعليمًا منزليًا سوى ٨٥٠ ألف طفل. ويقدر «اتحاد الدفاع القانونى عن التعليم المنزلى (HSLDA)» عدد الأطفال الذين يتلقون تعليمًا منزليًا بحوالى مليونين ـ أى ٤ ٪ من السكان فى سن الالتحاق بالمدرسة (أى أكثر بكثير من نسبة حضور المدارس المرخصة أو المشاركين فى تجارب صكوك (كوبونات) المدارس). ومن المرجح أن يكون العدد الذى يذكره «اتحاد الدفاع القانونى عن التعليم المنزلى» أقرب إلى الحقيقة. فوزير التعليم رود پايدج يورد رقم المليونين، وعلى الرغم من رفض «أنصار التعليم المنزلى» الإجابة على الاستبيانات الحكومية، فهناك وفرة من الشواهد على أن التعليم المنزلى فى ازدياد سريع. إذ يقدر سوق الطلب على الموارد التعليمية اللازمة للتعليم المنزلى بما لا يقل عن ٨٥٠ مليون

دولار سنويًا. وأكثر من ثلاثة أرباع الجامعات لديها الآن لوائح للتعامل مع الأطفال ممن تلقوا تعليمًا منزليًا. ونشأت بالمئات شبكات للدعم فى البلدات والمدن فى كافة أرجاء البلاد، بما يسمح للآباء بالقيام بكافة المهام من إنشاء معامل للعلوم إلى تكوين فرق رياضية والدفاع عن حقوقهم وسمعتهم؛ وحين بدأت سلسلة متاجر «چى سى پنى» فى بيع فانلات مطبوع عليها عبارة «متعلم منزليًا» بجوار صورة لبيت متنقل [على حاملة ـ trailer]، بلغت الشكاوى حد أن قام المتجر بنزع الفانلات على الفور. وكما هى الحال مع كافة الثقافات الفرعية المحافظة، ذاع الخبر بسرعة بظهور حالات نجاح كثيرة: أسرة لديها ثلاثة أبناء تلقوا تعليمًا منزليًا يلتحقون بجامعة هارڤارد؛ متعلم منزليًا يصدر رواية تحقق مبيعات هائلة؛ المرتبة الأولى والثانية والثالثة فى مسابقة التهجى القومية لسنة ٢٠٠٠م يحرزها أبناء تلقوا تعليمًا منزليًا.

وظهور التعليم المنزلى أمر غير عادى لسببين، أولهما أنه يتطلب استثمارًا هائلاً للوقت والجهد. ويتنازل من يمارسونه عن التعليم العام المجانى الذى مولوه بالضرائب التى يدفعونها. كما أنهم فى العادة يتنازلون عن فرصة وجود مصدر دخل ثان لأن أحد الأبوين (الأم عادةً) عليه أن يظل بالبيت لتعليم الأبناء. هذا بالإضافة إلى عامل كلفة المواد التعليمية. والسبب الآخر أن التعليم المنزلى يمثل رفضًا سافرًا لسلطة الدولة. فمنذ أن شرعت الدول المتقدمة فى فرض التعليم المكثف منذ مائة وخمسين سنة، اعتبر علماء الاجتماع من أمثال إميل دوركايم وماكس ڤيبر سيطرة الدولة على التعليم لازمة طبيعية «للتحديث». ومع ذلك نجد مليونين من الآباء فى أكثر دول العالم تقدمًا يصرون على أن التعليم ينبغى أن يكون مسألة عائلية.

من الخطأ اعتبار كل من يمارسون التعليم المنزلى محافظين دينيين. فكان أحد أوائل المدافعين عن التعليم المنزلى، وهو چون هولت، يساريًا يرى فى المدارس أدوات لمركب بيروقراطى ـ صناعى. ولا تزال وودستوك بنيويورك تمثل مركزًا للتعليم المنزلى. وهناك قسم من حركة التعليم المنزلى يعرف بـ«عدم الالتحاق بالمدارس» ويرى أن الأطفال يجب أن يُتركوا بصورة ما ليعلموا أنفسهم. كما أن هناك كثرة من الآباء المحدثين ومنهم عدد متنام من زنوج الحضر، يبدو أنهم قرروا أن المدارس العامة الأمريكية يسودها العنف والخلل وبالتالى لا تصلح لأبنائهم.

ومع ذلك فاليمين المسيحى هو الذى يغذى حركة التعليم المنزلى. بدأ المحافظون الاجتماعيون فى النظر إلى التعليم المنزلى نظرة جادة فى السبعينيات، بعد أن حظرت المحكمة العليا الصلاة فى المدارس. وبدءوا منذ الثمانينيات فى إمداد التعليم المنزلى «بالعضلة» السياسية. والمحافظون المسيحيون غاضبون من أن المدارس العامة تعلم التساهل العلمانى، ويزعمون القدرة على توفير تعليم أفضل فى البيوت. فالتعليم المتدرج يمكن أبناءهم من التعلم بسرعتهم هم لا بالسرعة التى وضعت لتناسب الهيئات التعليمية. ويمكن تعليم الأطفال مواد تقوم على تراث التعلم اليهودى المسيحى لا على الهراء الصحيح سياسيًا. وهناك اتجاه متزايد بين أنصار التعليم المنزلى من المسيحيين للعودة إلى «ثلاثية العلوم الحرة» [التى كانت سائدة فى مدارس العصور الوسطى] بموادها الثلاث: النحو والبلاغة والمنطق (والتى تتطلب تعلم اليونانية واللاتينية أيضًا). وفى الوقت نفسه، فالإنترنت تتيح الوصول إلى المواد التعليمية وإيجاد مجتمعات افتراضية تتبادل المعلومات فيما بينها.

ومع ذلك فالحركة لا تزال أقل تكاملاً مما يوحى به ذلك ـ فهى تسير من القاع إلى القمة لا العكس، وتسوقها مجموعة مشوشة من الدوافع. فلدينا على سبيل المثال مايكل سميث رئيس «اتحاد الدفاع القانونى عن التعليم المنزلى» الذى بدأ اهتمامه بالتعليم المنزلى لأنه كان منزعجًا لتعثر ابنه الصغير فى الحضانة. وكان فى طريقه إلى إدارته القانونية بوسط لوس أنچيليس ذات صباح وهو يستمع إلى برنامج چيمس دوبسون الإذاعى، فسمع أحد ضيوف دوبسون وهو ريموند مور يتحدث عن التعليم المنزلى. وكان أن غير هذا البرنامج الإذاعى حياة سميث. فشرع فى تعليم أبنائه فى البيت وانضم إلى حركة التعليم المنزلى الأوسع، وبدأ يساعد فى الدفاع عن أنصار التعليم المنزلى الذين تعرضوا «للاضطهاد» من قبل سلطات كاليفورنيا. (كانت أولى دعاواه طفلة فى الخامسة تتلقى تعليمًا منزليًا لأن مَدرستها عاقبتها لأنها أسرت بصلاة الشكر على نعمة الطعام قبل الطعام). وشارك فى إنشاء «اتحاد الدفاع القانونى عن التعليم المنزلى» فى سنة ١٩٨٣م، ليصبح مساويًا «لاتحاد الحريات المدنية الأمريكية» بالنسبة لممارسى التعليم المنزلى.

ويمثل مكتب سميث حاليًا رمزًا للطموح المتنامى لحركة التعليم المنزلى المحافظة، وهو إنشاء أول جامعة. لم يتم إنشاء «كلية پاتريك هنرى» إلا فى سنة ٢٠٠٠م، ولكنها

تباهى بعدد طلابها البالغ ٢٤٢ واثنى عشر من أعضاء هيئة التدريس وستة آلاف متبرع وبضع مبان أنيقة مبنية بالطوب الحرارى، وخطط طموحة للتوسع فى الدراسة بالمرحلة الجامعية لتشمل ١٦٠٠ طالب وإضافة كلية حقوق لأربعمائة طالب. ويصف مايكل فارس مؤسس الكلية والمرشح الجمهورى السابق لمنصب نائب حاكم ڤيرچينيا رسالة الكلية بأنها «تأهيل المتدينين المسيحيين الذين سيقودون الأمة ويصوغون ثقافتها». وأكثر من ٨٠ ٪ من طلابها تلقوا تعليمًا منزليًا.

و«كلية پاتريك هنرى» مكرسة لهدفى اليمين الأسمى: «المسيح والحرية». وتغطى جدرانها صور للآباء المؤسسين، وسميت مبانى مساكن الطلاب بأسماء بيوتهم (مونتيتشلو، ماونت ڤيرنون . . .). ومع أن هناك جدلاً ساخنًا بين أتباع چيفرسون وأنصار هاملتون بالكلية حول مدى الصغر الذى يجب أن تكون عليه الحكومة، فإن مفهوم الكلية عن دور الحكومة محدود للغاية بالمعايير الحديثة. ولا تتلقى الكلية أى دعم حكومى من أى نوع. إلا أن الدين حاضر فيها. فصور الآباء المؤسسين المنتشرة فيها تصورهم وهم يصلون: فصورة واشنطن مثلاً تصوره وهو راكع فى «ڤالى فورج». وتحتفظ الكلية بنسخ من أول صلاة تليت فى مجلس النواب. وأحد الطرق داخل حرم الكلية يسمى «طريق العهد». وكل من فى الكلية من أعضاء هيئة تدريس وطلاب وعاملين ملزمون بـ «الشهادة بالخلاص الشخصى عبر المسيح وحده». والأساتذة جميعًا يوقعون إقرارًا بـ «الإيمان الكلى برؤى الكتاب المقدس» بما يؤكد الحقيقة الحرفية لولادة مريم العذراء والتفسير التوراتى لنشأة الكون. والخمر والتبغ محظوران فى حرم الكلية. والتودد بين الجنسين مقيد بشدة، فعلى الطالب الذى يرغب فى لقاء فتاة الاتصال بأبى الفتاة ليحصل على إذن منه بترتيب موعد معها، ولا بد من إشراك الأسرة فى تطور مجريات العلاقة بينهما. ويصف فارس ـ وهو أب لعشرة من الأبناء ـ الكلية بأنها «ملاذ آمن من الجنس والمخدرات والروك أند رول. أو بالأحرى من الجنس والمخدرات». ويحضر الطلاب قداسات الكنيسة الملحقة بصفة يومية.

يبدو فى بعض الأحيان أن مهمة «كلية پاتريك هنرى» إحياء بلد بأكمله. يقول فارس لطلابه: «كما أن دعوة آبائكم كانت أن تتغيروا من أجل المسيح، فإن دعوتكم أن تعيدوا شعبنا إلى القاعدة الإلهية». ويفترض فى الكلية أن تخرج مسيحيين صالحين

وأناس يساعدون على انتصار قيم اليمين فى الثقافة السياسية الأوسع. ومنهج «كلية باتريك هنرى» مصمم على غرار منهج «جيل المؤسسين»، فيشمل الفلسفة والمنطق ولغة أجنبية والتاريخ ودراسات الكتاب المقدس والاقتصاد والأدب والعلوم وهندسة إقليدس واليونانية أو اللاتينية القديمة.

ويتدرب الطلاب على مواجهة «الرؤى البديلة». يقول روبرت ستيسى رئيس قسم علم الحكومة: «لا أريد أن تكون أول مواجهة للطالب مع العدمية أو المادية فى مأدبة فى كابيتول هيل وسط الملحدين والأعداء من أمة الدنيا». ويتم إرسال الطلاب للتدرب بمكتب كارل روف وفى كابيتول هيل، وأحد الخريجين يعمل حاليًا فى مكتب بول بريمر بالعراق(*). كما تتطلع الكلية لإنشاء مدرسة سينمائية، وأحضرت بالفعل أعضاء من جماعة من كتاب السيناريو المسيحيين من هولى وود لتدريس كتابة السيناريو.

وعلى الرغم من هذا الإحساس بالرسالة الهادفة، فالطلاب بعيدون عن أن يكونوا نسخًا من المحافظين الاجتماعيين. ستيفن على سبيل المثال، والذى تلقى تعليمًا منزليًا فى ميدلاند بولاية تكساس، يمزج حديثه بإشارات إلى ميشيل فوكو والنظرية الأدبية، ويبدى قلقه من «غلو» ولايته فى تطبيق عقوبة الإعدام حتى أنه يفكر فى الحصول على فرصة عمل فى تنظيم يعمل من أجل إصلاح عقوبة الإعدام دون إلغائها. ويعترف عدد من الطلاب بأن سياسة جورج بوش الابن الخارجية تحيرهم كثيرًا، ويبدون كثيرًا من الود تجاه «أوروبا العلمانية» ويقولون إن أوروبا وأمريكا كلاهما ورثة الحضارة الغربية. ويمكن لكل من القارتين أن تتعلم من الأخرى بدمج مختلف الرؤى للتغلب على المشكلات. فالخلافات بين شاطئى الأطلنطى فى رأيهم مصدر قوة لا انقسام.

ومع ذلك فالطلاب جزء من جيش جورج بوش الابن؛ فهم ينتعلون أحذية رياضية ويلبسون سترات الركض ويغمغمون من حين لآخر عن التفكيكية الفرنسية، ولكنهم مع ذلك يسيرون فى اتجاه اليمين. وهناك شعور عام بأن علاقة بوش بالمسيح تمنحه القدرة على اتخاذ القرار السليم. تقول أبيجيل وهى تشكر الله أن كان جورج بوش

(*) كان الحاكم الأمريكى للعراق بعد الغزو.

الابن فى منصبه فى ١١ سبتمبر: «أنا أحب هذا الرجل». أما كريستن التى انضمت لحملة إعادة انتخاب بوش فى سنة ٢٠٠٤م، فتنوى التخصص فى السياسة الخارجية، وتؤمن بأن المسيحيين آثروا الخروج من الجدل وقرروا فى كسل ضرورة إلغاء الأمم المتحدة أو تركها للنخبة الليبرالية، وترى أن المسيحيين ينبغى أن يستغلوا ملكاتهم الإلهية فى إعادة صوغ المؤسسات العالمية بالطريقة التى أعادوا بها صوغ السياسات المحلية. وتقول: «أريد أن أتقدم خطوة فى علاقتى بالمسيح بأن أؤثر فى السياسات بصورة مباشرة».

تعمقت الصلة بين حركة التعليم المنزلى وحركة المحافظين فى السنوات الأخيرة، وكان من أسباب ذلك اتخاذ نقابات المعلمين جانب الديمقراطيين. وأكثر المدافعين عن التعليم المنزلى التزامًا فى كابيتول هيل كلهم من المحافظين المسيحيين. ويقوم ريك سانتورم عضو مجلس الشيوخ بتعليم أبنائه فى البيت (أو هكذا تفعل زوجته على الأقل). وساندت ماريلين موسجروف، وهى أيضًا ممن يعلمون أبناءهم بالبيت، مشروع قانون يزيل بعض اللبس التشريعى عن المنح والبعثات المقدمة للأطفال الذين يتلقون تعليمًا منزليًا. بل إن بيل بينيت وزير التعليم فى حكومة ريجان ذهب إلى حد أن قال: «ربما كان علينا أن نوكل التعليم العام برمته للتعليم المنزلى». وفى حملة ٢٠٠٠م الانتخابية، صرح بوش قائلاً: «نحن فى تكساس ننظر إلى التعليم المنزلى باعتباره شيئًا له احترامه وينبغى حمايته. الاحترام للجهد والالتزام اللذين يبديهما الآباء والأمهات بكل حب. والحماية من تدخل الحكومة». وبعد توليه الرئاسة، أقام فى البيت الأبيض حفلات استقبال عدة للأطفال ممن تلقوا تعليمًا منزليًا.

وكما الحال مع «حديقة ليبرتى» وجماعة «التركير على الأسرة» فهناك وفرة فى الشواهد الدالة على صلات «كلية باتريك هنرى» بحركة محافظين أوسع نطاقًا. فهناك صور فوتوغرافية موقعة لچورچ بوش وديك تشينى، وبطاقات معايدة موقعة من چورچ وزوجته. وكان إيان سلاتر مسئول الصحافة بالكلية يعمل بصحيفة «ويكلى ستاندارد». ويعرض پول بونيتشيلى عميد الكلية غلافًا لمجلة «ناشيونال ريڤيو» يصور چون أشكروفت رسم على رأسه قرنا شيطان وكتب عليه «الشيطان الأثير لدى كل ليبرالى» والصورة عليها توقيع الشيطان نفسه (زوجة أشكروفت من أعضاء مجلس

مديرى «كلية پاتريك هنرى»). وليس هناك شك لمن ستذهب أصوات معظم طلاب «كلية پاتريك هنرى». والأبناء ممن تلقوا تعليمًا منزليًا حسب تقديرات «اتحاد الدفاع القانونى عن التعليم المنزلى» أنشط سياسيًا من أقرانهم: ٧٤٪ من أبناء التعليم المنزلى فى المرحلة العمرية بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين يدلون بأصواتهم فى الانتخابات، مقارنةً بنسبة ٢٩٪ فقط من مجموع السكان فى المرحلة العمرية نفسها. كما أن أبناء التعليم المنزلى تزيد احتمالات أن يسهموا فى الحملات السياسية وأن يعملوا لدى المرشحين.

مؤامرة اليمين الكبرى؟

هل كانت هيلارى كلينتون على حق حين أشارت إلى مؤامرة يمينية كبرى؟ نظرة على أمخاخ حركة المحافظين وعضلاتها تدل على أنها كانت على حق، ولكن ليس بالصورة التى قصدت. لا شك أن فكرة أن اليمين جيش متماسك محض هراء. فإذا كان چورچ بوش الابن رئيسًا بالصدفة، فالجيش الذى تجمع تحت لوائه تحالف بالصدفة. وعلى «الچنرال» روف أن يبذل كل جهده لضمان ألا يغيب معظمه عن المعركة. فاليمين يسعده أن يحتشد ليضايق كلينتون وزوجته أو أن يزمجر فى وجه أسامة بن لادن، إلا أن فصائله تختلف حول الكثير عدا ذلك. فما الذى يجمع بين المعارضين للحكومة ممن لا يريدون إلا أن يُتركوا لحالهم و «الملالى» المسيحيين ممن يريدون أن يحشروا الحكومة فى أخص جوانب حياة الناس؟ وبعض الناس فى اليمين من الهيپيز ولديهم شهية غير عادية للماريچوانا والأسلحة النارية، وهناك غيرهم أخلاقيون خائفون يكرهون أى شىء يكون فيه أى أثر من الستينيات. والعديد منهم لا يمكن تشخيصهم. والرجل الذى يحتل مكان القلب من مؤامرة هيلارى الكبرى، ريتشارد ميلون سكايف، يؤيد حقوق الإجهاض ويؤمن بفرض قيود على الهجرة والتجارة[٧]، وكل ذلك قبل أن تبدأ فى التفكير فى الحَزازات الشخصية: ماكين ضد بوش، كريستول ضد نوركويست . . . ويتوقع العديد من المعلقين تصدع اليمين فى غضون السنوات القليلة القادمة بسبب هذه التناقضات الداخلية الصارخة.

ومع ذلك فاليمين أكثر تماسكًا مما يوحى به المنطق، وهذه فى جزء منها مسألة تتعلق بالأعضاء. فالأسماء نفسها تظل تتردد فى عالم اليمين. ويضم مجلس إدارة «اتحاد

المحافظين الأمريكيين»جروفر نوركويست من «أمريكيون من أجل إصلاح ضريبى» ووين لاپيير من «الاتحاد القومى للبنادق» ومورتن بلاكويل من «معهد القادة» وآلان جوتليب من «حديقة ليبرتى». ورالف ريد وكارل روف ولى آتواتر وتيرى دولان وجروفر نوركويست كلهم بلغوا سن الرشد السياسى مع جمهوريى المجمع. ويستمر هذا التشابك على المستوى المحلى كما رأينا فى «حديقة ليبرتى». ذات مرة حكى رسام الكاريكاتور الأسترالى الكبير داڤيد لو، أنه حين وصل إلى بريطانيا لأول مرة أحس كأنه جندى المشاة البريطانى الذى الذى زار الصين ولم يعرف ما إذا كان رأى صينيًا واحدًا مائة مرة أم رأى مائة صينى مرة واحدة.[٨] الشىء نفسه يمكن أن يقال عن الشباب فى «مؤتمر العمل السياسى المحافظ».

وهناك دليل آخر هو الطريقة التى يمكن بها لهذه التنظيمات أن تعمل معًا بسلاسة فائقة. ففى أثناء المظاهرات المعادية للعولمة فى سياتل فى سنة ١٩٩٩م، تباهى المتظاهرون بأنهم استعانوا بالإنترنت لابتكار أسلوب سياسى جديد هو «إغراق» خصمهم بعدد لا يحصى من التنظيمات الصغيرة. وهذا ما يفعله اليمين منذ سنوات؛ حيث يستعين بالبريد المباشر والفاكس والبرامج الإذاعية الحوارية، ثم بالبريد الإلكترونى حاليًا، لمهاجمة تشريع ما أو تأييده. وتعرضت كل من هيلارى كلينتون ومارسى موريسون فى كولورادو لهذه الطريقة من الإغراق وبلا هوادة.

ويلاحظ البعض وجود رابط أيديولوچى أعمق يبقى على تماسك أمة اليمين. تصر هيلارى كلينتون على أن هذه القوة الموحدة بينهم هى كراهية التقدم: «أعتقد أن هناك شبكة معقدة من جماعات وأفراد يريدون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء فى العديد من أوجه التقدم التى أحرزتها بلادنا، من الحقوق المدنية وحقوق المرأة إلى قوانين الاستهلاك والبيئة».[٩] ومن الجانب الآخر نجد جروفر نوركويست يحب أن يطلق على التحالف الجمهورى «تحالف دعونا لحالنا». ويقول إن الأعمال تكره الضرائب واللوائح الحكومية، والمسيحيون يكرهون اللوائح الحكومية الخاصة بالمدارس - إذن أليس من الطبيعى للفريقين أن يتحدا؟

ليس من الغريب أن يظل منظران مثل نوركويست وهيلارى كلينتون يرجعان إلى الأيديولوچيا. إلا أن الرأى المعروض يفتقر إلى التماسك. فهل چون أشكروفت من

نوعية «دعونا لحالنا؟» هناك شيء أهم من الأيديولوچيا يوحد اليمين هو الثقافة. فالتحالف سوسيولوچيًا أكثر تماسكًا مما يتصور المرء. فحيازة السلاح شائع بين المسيحيين الإيڤانجليكيين بدرجة أكبر منه بين أساتذة الجامعات مثلاً. وحوالى نصف أصحاب الأعمال الصغيرة يعتبرون أنفسهم مسيحيين مولودين ثانيًا.[١٠] والنشطاء من المناهضين للضرائب وأعضاء التحالف المسيحى كلاهما مستمعون متحمسون للحوارات الإذاعية. وفى الستينيات، لم يكن هناك الكثير مما يجمع بين المثقفين الحضر من اليهود والأخلاقيين الجنوبيين. كانوا كزوجين غريبين عن بعضهما البعض، ولكن بمرور الزمن اكتشفا ما يمكن أن يجمع بينهما: كمأساة التفكك الأسرى وشرور ياسر عرفات وهيلارى كلينتون.

قد يبدو مفهوم «الثقافة» غامضًا بعض الشيء، ولكنه حاضر فى «كلية پاتريك هنرى» و«حديقة ليبرتى». وقد يكون حاسمًا فى الانتخابات. وأمة اليمين تعتمد على حشد صفوف المتماثلين فى الفكر حول أية مسائل مشحونة ثقافيًا. وهذه المسائل تبدو مبهمة تارة وسخيفة تارة أخرى ولكنها تتركز لتصبح شيئًا أكبر: «هل أنت واحد منا أم واحد منهم؟» انظر مثلاً إلى انتخابات ٢٠٠٢م فى چورچيا. لم يكتف الجمهوريون فيها بالاستحواز على مقعد بمجلس الشيوخ وإقصاء ماكس كليلاند الذى كان الخبراء يعتبرونه فى مأمن (كان ديمقراطيًا معتدلاً فقد ساقيه وأحد ذراعيه فى ڤيتنام) بل تمكنوا من الإطاحة بالحاكم الديمقراطى روى بارنز الذى كان كثيرون بدءوا يعتبرونه مشروع رئيس. وفى كلتا الحالتين، استبدلهما الجمهوريون بشخصيتين محليتين مغمورتين نسبيًا، هما عضو مجلس شيوخ الولاية سونى پيردو (وهو أفقر من بارنز ولكنه حاليًا أول حاكم جمهورى للولاية منذ ١٨٧٢م) وساكسبى تشامبليس عضو مجلس النواب المحلى. وفى كلتا الحالتين، كانت لهجمات الجمهوريين صلة أكبر بالثقافة من المكانة الاجتماعية.

تمكن رالف ريد من سحق كليلاند بالتركيز على الأمن القومى، واتهمه بعرقلة مشروع قانون جديد لأمن الوطن. كان المخطط يتسم بالفجاجة أحيانًا؛ حيث بثت حملة تشامبليس إعلانًا يعرض صورًا لأسامة بن لادن وصدام حسين وماكس كليلاند ويقول إن كليلاند «صوت ضد جهود الرئيس الحيوية الرامية لحماية الأمن القومى

إحدى عشرة مرة». لكن المضمون الأساسى كان أمكر، ولا يتصل بالأصوات الانتخابية قدر اتصاله بالقيم. كان أنصار ريد يقولون: «إن كليلاند رجل عظيم ولكنه لا «يدرك» ما يتهدد الوطن من خطر - على عكس تشامبليس رئيس لجنة الإرهاب بمجلس النواب». وجاء چورچ بوش الابن إلى چورچيا ليفرض رأيه بالقوة، ووافقه الجنوبيون البيض المحافظون على مضض.

وركز الجمهوريون مع الحاكم بارنز على مسألة أخرى مشحونة ثقافيًا هى علَم الولاية. كان بارنز بضغط من الديمقراطيين السود يسعى لفرض نسخة أخرى من علم الولاية يقل فيها حجم صليب معركة الكونفيدرالية كثيرًا عن سابقه. وكان معظم أهالى چورچيا سعداء بهذه التسوية، أما البيض من أهل الحضر فلم يكونوا سعداء؛ وكانت تنظيمات مثل «أبناء محاربى التحالف القدامى» تعتبر العلم القديم جزءًا من إرثها. فظهر ملصق على مصدات السيارات يقول «لو كنت أعلم أن هذا هو المقصود لجمعت قطنى بيدى». واستنفد ريد كل طاقته لدفع البيض الريفيين للإدلاء بأصواتهم، فتم تنظيم الدوائر الانتخابية وتعبئة «الاتحاد القومى للبنادق» واستنهاض الكنائس الإيڤانجليكية وهكذا. وفى يوم انتخابات مطير، وقف المتطوعون على المفارق رافعين شارات بعلم الكونفيدرالية يحثون الجيران على «خلع بارنز». أما الديمقراطيون فأخفقوا فى جذب أصوات الزنوج. فأطيح ببارنز أرضًا.

هل هناك مؤامرة فعلاً؟ لا بد أنها شديدة التنظيم. ولكنها فى النهاية لم تكن بصدد «الچنرال» روف وإصداره الأوامر من البيت الأبيض. بل كانت بصدد شىء آخر أهم وهو تذكير المحافظين بسبب بغضهم للجانب الآخر.

***

الفصل الثامن

معنا أم علينا؟
اليمين والحرب على الإرهاب

فى خطبة قبول الترشيح فى المؤتمر القومى الجمهورى بفيلادلفيا فى ٣ أغسطس ٢٠٠٠م، ركز چورچ بوش الابن على موضوع أسعد الحضور، وهو خيبة أمله فى إدارة كلينتون. وقال إنهم كانوا واعدين ولكن إلام آلت الأمور؟[١]

وفى ١٠ سپتمبر ٢٠٠١م، كان يمكن قول العبارة نفسها عن إدارة بوش. بدايةً، فاقت هذه الإدارة كافة التوقعات بدون شك، فتمثلت أيام مجدها فى الخفض الضريبى ومشروع قانون التعليم. ولكن كان هناك شعور متنام بخيبة الأمل فى هذه الإدارة، لا سيما بين المثقفين والقاعدة الجماهيرية. وكان يبدُو أن جدول أعمال بوش آنذاك يتقلص إلى نصائح بحسن معاملة الجيران («تراحم الناس») وقرارات صعبة مراوغة بشأن أبحاث الخلايا الجذعية. وكانت إحدى أكبر أفكاره، وهى حركة المحافظين الرحيمة، قد أخفقت بعد أن كانت تبشر بالنجاح. وكان المحافظون شرعوا فى اللجوء إلى الدفاع التقليدى عن كافة الإدارات الجمهورية، فمجرد وجود بوش وعدم كونه على الجانب الآخر كان يعرقل تقدم الدولة الليبرالية. وكان الجمهوريون قد فقدوا السيطرة على مجلس الشيوخ بالفعل بفضل انشقاق چيم چيفوردز. وكان هناك قلق بشأن انتخابات ٢٠٠٢م النصفية.

وكانت هناك أيضًا مخاوف من الرجل. إذ كان بوش تجاوز توقعات كثير من الناس ولكن بصورة سلبية حتى فى صفوف اليمين. وفى صباح ١١ سپتمبر، كان منهمكًا فى تسلية تقليدية بعد فترة رئاسة قصيرة؛ حيث كان يقرأ بعض النصوص لتلاميذ الفرقة

الرابعة بإحدى مدارس فلوريدا. وفى أعقاب وقوع الهجمات مباشرةً، بدا ضئيلاً على منصبه، فكان مترددًا، ولم تكن الكلمات تخرج بسهولة من فمه كما كانت ستخرج من فم رونالد ريجان مثلاً أو بيل كلينتون. وأخذ بوش وقتًا طويلاً إلى أن وصل إلى البيت الأبيض، وخرج فريقه بقصة غير محبوكة عن تعرض طائرة الرئاسة لخطر مباشر. وفى كتابه عن بوش، والذى يتسم فى مجمله بالتعاطف، يعرب فرانك برونى الصحافى بجريدة نيويورك تايمز عن شكوكه قائلاً:

> لم يكن بوش الذى عرفته الرجل الذى يصلح لما هو آت من جوانب عدة. فبوش الذى كنت أعرفه كان نصفه وغد ونصفه أخرقً، فتى طائش دائمًا وسكير أخرق يتسكع فى النوادى فى أيام الأسبوع وينام فى عطلات نهاية الأسبوع، بالغ ولكن فى داخله طفل يطفو غالبًا على السطح أو يندفع.[٢]

ولكن فى غضون أيام قلائل تغير الرئيس ورئاسته. اكتسب نؤوم نهاية الأسبوع عزمًا وإصرارًا بعد أن ورث تحديًا فى ضخامة أى تحد واجهته أمريكا منذ أزمة الصواريخ الكوبية، ونال الهدف الذى كانت رئاسته تفتقده منذً وقت طويل.

لا شك أن ١١ سبتمبر كان له تأثيره على الرئاسة فى الداخل، إذ غيرت طبيعة الجدل حول الهجرة والضرائب والأمن وغير ذلك كثير. إلا أن التغيير الكبير جاء فى السياسة الخارجية. وكان بوش فى المناظرة الرئاسية الثانية فى وينستون ـ سالم فى سنة ٢٠٠٠م حذر قائلاً: «لو كنا شعبًا متغطرسًا لكرهونا. ولو كنا شعبًا متواضعًا ولكنه قوى سيرحبون بنا». وبعد أربع سنوات، كان الحديث يدور عنه باعتباره رئيسًا إمبراطوريًا «يغير الأنظمة ويستغنى عن حلفاء ويتكلم عن نظريات راديكالية عن الوقائية. وكان بعض هذه الحدة حتميًا، فهناك شعب عملاق تلطخ بالدم ويطلب الثأر. يقول بيل كلينتون لأصدقائه إنه كان سيزيل طالبان من أفغانستان. لكن بوش ذهب إلى ما هو أبعد. فلم يكن رد بوش على ١١ سبتمبر ردًا محسوبًا، بل كان طموحًا بصورة استثنائية، كان ردًا راديكاليًا ولا يصدر إلا عن أحد المحافظين الجدد فعلاً.

سنة فى المرتبة الثالثة

هناك فكرة شائعة مفادها أن أمريكا حاليًا لها سياسة خارجية محافظة جديدة. إلا أن

المحافظين الجدد كانوا أعضاء صغاراً بفريق بوش حتى ١١ سبتمبر، ولم يتول منهم مناصب فى الإدارة إلا عشرون فى سنة ٢٠٠١م. وكان أعلاهم مكانة پول وولفوويتز نائب وزير الدفاع. ومن الشخصيات البارزة الأخرى دوجلاس فايث الرجل الثالث فى وزارة الدفاع؛ ولويس «سكوتر» ليبى رئيس مكتب ديك تشينى و«حماية» وولفوويتز؛ وچون بولتون(*) الذى عين مسئولاً عن الحد من التسلح بوزارة الخارجية على الرغم من عدم ثقته فى جدوى الحد من التسلح. وهناك چيم وولزى وريتشارد پيرل وكن أدلمان الذين وجدوا أماكن فى مجلس رامسفيلد للسياسات الدفاعية - وكذلك فعل عشرات غيرهم. ولم يكن المحافظون الجدد من البيروقراطيين الإداريين مثل تشينى ورامسفيلد. ولم يكونوا جزءاً من مافيا تكساس مثل كارن هيوز وكارل روف. بل كانوا يهوداً فى حفل كان فى العادة معقلاً للأغيار. كانوا مثقفين ومهنيين - نوعية من الحاصلين على درجات بعد العالية من جامعات مرموقة، صنعوا أسماءهم فى مراكز الفكر والحياة الأكاديمية والمجلات الثقافية، وأمضوا ردحًا من حياتهم فى خلاف فيما بينهم. لم يكونوا رفاقًا طبيعيين لرئيس يحكم على الناس بما فى قلوبهم لا بنوعية عقلياتهم.

ويلاحظ أن العديد من كبار المحافظين الجدد - بما فى ذلك بيل كريستول محرر «ويكلى ستاندارد» - أخذوا جانب چون ماكين لا جانب بوش فى انتخابات الجمهوريين التمهيدية فى سنة ٢٠٠٠م. لم يكن ماكين هو الشخصية المثالية من وجهة نظرهم - إذ لم يكن يؤيد فرض عقوبات تجارية على الصين مثلاً(٣) - ولكنه كان يدعو لنوع من النزعة المحافظة المعتزة بالعظمة القومية، يأخذ الدول المارقة وأسلحة الدمار الشامل على محمل الجد. وكان كريستول وحلفاؤه يخشون أن يكون بوش كأبيه الذى أجهض حرب الخليج الأولى قبل القضاء على صدام حسين ودفع إسرائيل نحو عملية أوسلو للسلام واستخدم عدداً من الواقعيين الجمهوريين من أمثال كولن پاول وبرنت سكوكروفت وچيمس بيكر (الذى اشتهر بقوله «. . . اليهود [Fuck the Jews]، فهم لا يصوتون لنا على أية حال»).

وفى الحملة الانتخابية، اتخذ چورچ بوش الابن جانب الفريق الواقعى من الحزب الجمهورى. وتغنى بأهازيج السياسة الخارجية «المتواضعة ولكنها قوية» وانتقد أحد

(*) ثم أصبح سفير الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة برغم المعارضة الشديدة من الديمقراطيين، ولذلك استقال من منصبه بعد انتخابات الكونجرس عام ٢٠٠٦م، والتى سيطر فيها الديمقراطيون على المجلسين.

المعتقدات الأساسية فى فلسفة المحافظين الجدد، وهو التدخل فى النقاط الساخنة كالبلقان. وكان إلمام بوش بالشئون الخارجية فقير، فهو لم يسافر إلى خارج البلاد إلا قليلاً بالنسبة لمن هم فى مكانته الاجتماعية، وكان يخطئ فى اسم أهل اليونان بالإنجليزية، ورسب فى امتحان تطلق الأسئلة فيه بسرعة. وعندما فشل فى ذكر اسم حاكم پاكستان حاول أن يقلب المائدة بسؤال مضيفه عما إذا كان يعرف اسم وزير خارجية المكسيك. أجابه الصحافى: «لا سيدى، ولكنى أرد عليك بأنى لست أسعى لتولى منصب رئيس الولايات المتحدة». (٤)

كان وولفوويتز أحد «البراكين» الأولى كما عُرف عن فريق السياسة الخارجية الخاص بالمرشح بوش، إلا أن أهم من علم بوش الشئون الخارجية كوندوليزا رايس، وهى امرأة كانت تشاركه اهتمامه بالرياضة والتمرين البدنى والتدين. كان اهتمام رايس الأول القوى العظمى ـ لا سيما تلك التى كانت تعرفها جيداً، أى روسيا. كانت لديها رؤية غامضة عن بناء الأمم، وكانت تزدرى فكرة «مرافقة الأطفال إلى الحضانة فى رحلة جوية مدتها ثمانون ثانية». (٥) حتى ديك تشينى الذى يقال إنه أصبح أقوى أنصار المحافظين الجدد، كان يختلف عنهم فيما يتعلق بشتى أنواع القضايا الحيوية. وفى أثناء توليه منصب وزير الدفاع فى حكومة بوش الأول، ساند قرار ترك صدام فى مكانه فى سنة ١٩٩١م، وهو قرار اعتبره المحافظون الجدد خطأ لا يغتفر. وعرف عنه أنه من منتقدى إسرائيل وسياساتها الاستيطانية، ولم يكن يريد لأمريكا أن تتدخل فى البلقان على عكس كريستول وغيره.

كان نفوذ المحافظين الجدد فى وزارتى الدفاع والخارجية أقل منه فى البيت الأبيض. فكان العسكريون يعتبرون المحافظين الجدد أسوأ أنواع المتطفلين المدنيين: فهم حفنة من المثقفين النحفاء ممن لم يشهدوا معركة بأنفسهم (معظم المحافظين الجدد كانوا أسرع فى الهروب من ڤيتنام حتى من بوش نفسه) ومع ذلك يريدون إرسال القوات الأمريكية للحرب فى كافة أرجاء العالم. وفى الخارجية، كان الدبلوماسيون المحترفون يعافون رؤية المحافظين الجدد للعالم بلونين إما أبيض أو أسود، وهوسهم بإلقاء القنابل البلاغية، وكان مديرهم الجديد كولن پاول على يسار الحزب الجمهورى إلى حد بعيد ـ فهو من أنصار العمل الإيجابى والمؤسسات الدولية والحذر العسكرى، أى كل ما يبغضه المحافظون الجدد.

يقسم إيڤو دالدر ـ عضو «مجلس الأمن القومى» السابق فى عهد كلينتون ويعمل حاليّا بمؤسسة بروكنجز ـ المتكالبين على النفوذ حول بوش إلى ثلاث فئات: «إمبراطوريون ديمقراطيون» كالمحافظين الجدد؛ و«پراجماتيون حمائم» مثل كولن پاول؛ و«قوميون حازمون» كديك تشينى ورامسفيلد ورايس ممن وافقوا على حاجة أمريكا لرعاية مصالحها بشكل أكثر عدوانية، وليس لديهم صبر لبناء الأمم ونشر الديمقراطية وما إلى ذلك.[٦] وكان المحافظون الجدد أضعف الفئات الثلاث حتى ١١ سپتمبر. وضمن القوميون الحازمون أن سياسة بوش الخارجية كانت ذات حافة محافظة أصلب مما يود كثير من الأوروپيين: انظر مثلاً إلى الفظاظة التى تم الاستغناء بها عن معاهدة الصواريخ البالستية المضادة ومعاهدة كيوتو. كانت أمريكا تلقى بثقلها فى كل مكان (تراود الذهن عبارة «لا تعبث مع تكساس» مرة أخرى)، لكن التركيز كان عادةً على فصل الارتباط لا على تغيير النظام. وهدأت نبرة تكساس حين فاز كولن پاول بعدد من هذه الصراعات الديپلوماسية ـ حول العراق التى وافقت أمريكا بصددها على الانضمام لبقية مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فى جولة جديدة من العقوبات «الذكية».

كان يبدو أن التوازن يناسب چورچ بوش الابن. فكان بالطبع يود أن يطيح بصدام حسين لو سنحت فرصة سهلة لذلك (يزعم پول أونيل أن الفكرة نوقشت بعد عشرة أيام فقط من التنصيب)[٧] وتكون لديه فقدان مبكر للثقة فى كل من الهيئات متعددة الأطراف والفرنسيين. ولكنه كان كمعظم أمريكا المحافظة، يرى فى الشرق الأوسط وكر فئران، وبناء الأمم مثل لعبة الحمقى. أما الإرهاب، فيصر الجواسيس على جانبى الأطلنطى على أنه لم يكن ثم تغيير فعلى عن موقف إدارة كلينتون: فابن لادن كان يعد خطرًا ولكنه ليس أولوية. وكان تركيز بوش على السياسة الداخلية. كان حريصًا على ألا يكرر خطأ أبيه بالتورط أكثر من اللازم فى العالم الخارجى. وحين سئل ديك تشينى عن المحافظين الجدد فى لقاء تليفزيونى فى أوائل ٢٠٠١م أجاب: «عليهم أن يبيعوا المجلات، أما نحن فنحكم».[٨]

فى أعقاب أحداث ١١ سپتمبر مباشرةً، توقع معظم مراقبى السياسة الخارجية من بوش أن يؤكد على القومية. كان غضب أمريكا على الأشرار عظيمًا ولكن الحرب على

الإرهاب ربما كانت مسألة محدودة. فبعد ثلاثة أيام من أحداث ١١ سبتمبر، وجه كولن باول صفعة هادئة إلى وولفووتيز حين أعلن فى مؤتمر صحافى أن سياسة أمريكا «القضاء على الدول الراعية للإرهاب». وقال باول للصحافيين إن وولفووتيز يمكنه أن يتكلم عن نفسه، لكن هدف أمريكا القضاء على الإرهاب ولا شىء أكثر.[٩] والحقيقة أن السنتين التاليتين أثبتتا صحة رأى وولفووتيز.

عصبة المحافظين الجدد

فى أبريل ٢٠٠٣م، ظهر جدول أعمال المحافظين الجدد جليّا. فما كان مجرد كلام فى قاعات «معهد الأعمال الأمريكى» قبل سنتين، أضحى واقعًا فى شوارع كابل وبغداد. وتمت الإطاحة بصدام وبطالبان، ووضعت كل من سوريا وإيران على قائمة الانتظار؛ وتمت تنحية ياسر عرفات جانبًا. وتم إطلاق «مبادئ بوش» التى هلل لها المحافظون الجدد باعتبارها تنافس مبادئ ترومان فى «جرأتها ونجاحها وطبيعتها الثورية».[١٠] ورسمت إستراتيجية الأمن القومى لسنة ٢٠٠٢م سياسة وقائية صريحة، ودعت لـ «تشجيع المجتمعات الحرة والمفتوحة فى كل القارات». وفى الجدل حول العراق، قرر بوش فى النهاية تجاهل البطتين العرجاوين فى نظر المحافظين الجدد، أى الأمم المتحدة وأوروبا «العجوز». ولولا حماس بوش لإقامة دولة فلسطينية لما كانت للفرحة حدود فى ١١٥٠ شارع ١٧.

كيف قامت هذه الثورة؟ جاء أول تفسير والأقل إقناعًا من اليسار (لا سيما فى أوروبا) وهو أن عصبة لا ترحم اختطفت السياسة الخارجية من رئيس ضعيف. وجاء التفسير الثانى من المحافظين الجدد أنفسهم، والذين يعتبرون ظهورهم أمرًا منطقيّا، فهم تنبأوا بعالم يسوده الإرهاب وكانوا يعرفون كيف يتعاملون معه. ولكن كان هناك فى رأينا عامل ثالث هو الأهم، ففى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، لامست رسالة المحافظين الجدد وترًا كبيرًا لدى بقية أمة اليمين. وسرعان ما تحولت سياسة خارجية محافظة جديدة إلى سياسة محافظة.

ولنبدأ بالنظرية الأولى، وهى أن المحافظين الجدد أحدثوا انقلابًا فى البيت الأبيض. ترى النظرية أن هناك عصبة منظمة تنظيمًا جيدًا وعديمة الرحمة، قضت سنوات تحلم

بتغيير الأنظمة الحاكمة فى الشرق الأوسط. وانتهزت هذه العصبة فرصة كارثة ١١ سبتمبر لتدفع بالسياسة الخارجية الأمريكية فى اتجاه راديكالى جديد. وأبلغ اللورد چوبلنج الوزير البريطانى السابق مجلس اللوردات البريطانى فى ١٨ مارس ٢٠٠٣م قائلاً: «للمحافظين الجدد قوة خانقة فى وزارة الدفاع الأمريكية، ويبدو أن الرئيس مطاوع لهم». كما أبلغت البارونة شيرلى ويليامز (التى كانت آنذاك متزوجة بأستاذ العلوم السياسية البارز بجامعة هارڤارد، الراحل ريتشارد نويشتات) مجلس اللوردات بأن سياسة إدارة بوش «يسيرها ـ إلى حد ما ـ ما يمكننى أن أصفه بأنه أصولية مسيحية وأصولية يهودية لا تقل قوة عن الأصولية الإسلامية». [١١] واستشهد عضو بالبرلمان الفرنسى بما قاله وزير خارجية بلاده دومينيك دوڤيليپان: «إن الصقور فى الإدارة الأمريكية بيد شارون». [١٢] ويشير الروائى چون لوكاريه إلى وجود عصبة من المحافظين الجدد تتولى السلطة فى واشنطن و «تحد من حقوق الإنسان إلى درجة لا يمكن تصورها». كما شبه نفسه بكاتب اليوميات اليهودى فكتور كلمپرر الذى اختبأ من النازى فى قبو بمدينة درسدن فى انتظار عودة الألمان الأخيار بقوله: «أنا فى انتظار عودة الأمريكيين الحقيقيين». [١٣]

وفى الولايات المتحدة، أنشأ پات بوكانن مجلة The American Conservative لترويج رؤيته بأن المحافظين الجدد اختطفوا كلاً من حركة المحافظين والسياسة الخارجية الأمريكية. وكان يرى أن هدفهم يتناقض مع مصالح أمريكا المحافظة بتحويلهم الجمهورية إلى إمبراطورية وتقديم مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا. ويتخذ مايكل ليند ـ الذى يصف نفسه أحيانًا بأنه محافظ جديد معدل (وكان مدير التحرير الإدارى لمجلة National Interest من ٩١ ـ ١٩٩٣م) ـ خطًا أكثر تهذيبًا: «استغل المحافظون الجدد جهل بوش وقلة خبرته . . . ويبدو أن بوش يؤمن بوجود تهديد وشيك من «أسلحة الدمار الشامل» لدى صدام حسين، وهذا ما يقول المحافظون الجدد فى العلن ولكنهم أذكى من أن يصدقوا أنفسهم». [١٤]

هل هذا الكلام به أى قدر من الحقيقة؟ إن نظرية الانقلاب المحافظ الجديد كغيرها من نظريات المؤامرة تحوى عناصر من الحقيقة ـ ولكنها عناصر تم ليها معًا لتعطى صورة مضللة. وأول عناصر الحقيقة أن المحافظين الجدد زمرة متميزة؛ فهم جماعة من الناس

لديهم معتقدات وأنماط حياة مشتركة. وولفووتيز أكاديمى معروف. وفايث وليبى وبولتون كلهم محامون. وهم يعملون فى منتديات فكر واحدة («معهد الأعمال الأمريكى» هو الأثير عندهم) ويكتبون لمجلات واحدة (لا سيما «ويكلى ستاندارد»). وهم عادةً مؤيدون لا لإسرائيل وحسب بل لليكود المتشدد فى إسرائيل، أى حزب بنيامين نتنياهو وأرييل شارون. وفى سنة ١٩٩٦م، شارك بيرل كلاً من فايث وداڤيد ورمزر فى كتابة تقرير أسموه «انفصال نظيف ـ A Clean Break» لمنتدى فكر ليكودى اقترحوا فيه أن إسرائيل يجب أن تتخذ موقفًا أكثر وقائية تجاه أمنها ـ «بالإطاحة بسلطة صدام حسين» مثلاً و «احتواء سوريا» وتنحية عرفات جانبًا.[١٥]

ثم هناك كل الصلات الاجتماعية. فدراسة المحافظين الجدد كدراسة جماعة بلومزبيرى فى بريطانيا، أو دراسةأية جماعة أدبية نخبوية أخرى. إذ يبدو أنهم جميعًا التحقوا بالمدرسة معًا أو يسكنون متجاورين أو ينتمون لنواد واحدة أو يكتبون أبحاثهم معًا أو أنهم أقارب. صحيح ـ حسب علمنا ـ أن المحافظين الجدد ينامون مع بعضهم البعض بدرجة أكثر عمومية من ڤيرچينيا وولف ورفاقها الحميمين، إلا أنك يمكن أن تلعب لعبة الصلات الاجتماعية نفسها. ويمكنك أن تبدأ بوولفووتيز لتكتشف أنه هو وپيرل ووزلى كلهم أصدقاء، كلهم أتباع صاحب النظرية النووية (النموذج المفترض لدكتور سترانچلوڤ) ألبرت هو لستتر، وكلهم يقطنون فى تشيڤى تشيز بولاية مارى لاند. ويمكنك أن تبدأ بإليوت أبرامز (المكلف بالشرق الأوسط من قبل بوش) لتكتشف أنه زوج ابنة پودهوريتز، وأنه عمل مثل پيرل وفرانك جافنى الذى يعمل مع «مركز السياسات الأمنية» مع هنرى «سكوپ» چاكسون عضو مجلس الشيوخ الديمقراطى المتشدد.[١٦] أو قد تجرب ربط عائلة تشينى بالجماعة بالإشارة إلى عمل لين فى «معهد الأعمال الأمريكى» واحتفالهم بأعياد زواجهم مع عائلة أدلمان.[١٧] باختصار هناك ما يكفى من المادة لاستمرار نظرية مؤامرة لسنوات.

والجيل الحالى من المحافظين الجدد هو النسل الفكرى (والبيولوچى فى العديد من الحالات) للديمقراطيين المتحررين من الوهم الذين أسسوا حركة المحافظين الجدد فى الستينيات، ولكن هناك فروقًا كبيرة أيضًا. فقليل من المحافظين الجدد الأصغر سنًا من كانت له أية جذور فى الحزب الديمقراطى كالجيل الأول (ولو أن پيرل يتلذذ بتذكير

الناس بأنه ديمقراطى مسجل). وجلهم نتاج تنشئة رفيعة وتعليم مرموق فى «جامعات القمة». وبدلاً من اعتبار أنفسهم أنصاف محافظين كالمحافظين الجدد الأوائل، فإن أبناء الجيل الحالى يعتبرون أنفسهم «فوق محافظين» ويصرون أن حزبهم يجب أن يقوم على المبادئ لا على النفعية.

ويأتى بنا هذا إلى الحقيقة التالية. فالمحافظون الجدد عصبة لها رسالة فعلاً. فهم فى الداخل يريدون إصلاح نظام دولة الرفاهية والتخلص من العمل الإيجابى. أما فى الخارج فيعملون على أمرين: تأكيد القوة الأمريكية بطريقة أحادية مجردة من توريطات التعددية (المُضعفة لأمريكا، فى نظرهم)، واستعمال تلك القوة فى إعادة رسم خريطة العالم ونشر الديمقراطية الليبرالية لا سيما فى الشرق الأوسط. فى أثناء عمله بإدارة كارتر، كتب پول وولفوويتز بحثًا يحذر فيه من العراق. وفى سنة ١٩٩٢م، وهو نائب وزير الدفاع لشئون السياسات، كتب بحثًا آخر أورد فيه ما يؤيد كلاً من توجيه ضربات وقائية وزيادة تفوق أمريكا العسكرى. وهو ما اعتبر راديكاليًا لدرجة أن رئيسه ديك تشينى تلقى أمرًا بإعادة كتابته. وفى ١٥ سپتمبر ٢٠٠١م، وفى أول اجتماع إستراتيچى بعد الهجمات الإرهابية عاد، وولفوويتز من جديد وأصر على اعتبار العراق هدفًا إلى جانب أفغانستان، وقال إن هناك احتمال بنسبة من ١٠ إلى ٥٠ ٪ أن يكون صدام حسين ضالعًا فى الهجوم. (بعد يومين وافق بوش على السماح لوزارة الدفاع بالنظر فى أمر العراق، ولكنه قال إن إدارته التى تراعى مبدأ الأهم فالمهم ستركز على أفغانستان). [١٨]

وماذا عن الاتهام بأن المحافظين الجدد لا يرحمون فى تحقيق مراميهم؟ هنا أيضًا نجد للنقاد وجهة نظر. فالمحافظون الجدد نجحوا إلى حد كبير فى خطف الأضواء من المحافظين. فهم الصوت المهيمن فى «معهد الأعمال الأمريكى» و«معهد هدسون» و«معهد مانهاتن». وهم مسئولون عن عديد من أهم المؤسسات المحافظة ومنها برادلى وأولين. وكانوا يتلقون دعمًا ماليًا من اثنين من بارونات الإعلام من ذوى النفوذ: روبرت ميردوخ وكونراد بلاك. تمتلك مؤسسة ميردوخ للأخبار كلاً من «ويكلى ستاندارد» و «نيويورك پوست» (حيث يعمل چون ابن نورمان پودهورتز كصحافى بارز). وكان كونراد بلاك يشارك فى تمويل «ناشونال إنترست» و «نيويورك صن» قبل انهيار إمبراطوريته الإعلامية.

كذلك كان المحافظون ممارسون ناجحون لسياسات قوة واشنطن. وعدد منهم كان قلب صناعة القرار منذ عقود. فقد عمل وولفوويتز مع كل رئيس عدا كلينتون منذ عهد نيكسون، ومن الصعب أن تجد دولة فى العالم لا يعرف طريقه فيها. وقام بيل كريستول بتحويل وظيفة هزلية فى إدارة بوش الأول ـ رئيس مكتب دان كويل ـ إلى منبر يعبر اليمين منه عن سخطه على سياسات منتصف الطريق التى انتهجها بوش الأول. ومن الصعب منافسة ريتشارد بيرل فى المناورات البيروقراطية.

ويتسم بيرل بالذكاء ودماثة الخلق وخفة الظل (إن كان فى صفك)، وهو خبير فى توجيه الصحافيين والساسة الآخرين. وفى أثناء عمله لدى سكوپ چاكسون فى السبعينيات، نشرت نبذة عنه فى ٣٧٠٠ كلمة بصحيفة واشنطن پوست، وهو أمر غير معهود بالنسبة لعضو بإحدى الهيئات. وفى عهد ريجان كان «أمير الظلام» الممثل الوحيد لوزارة الدفاع حين التقى ريجان بجورباتشوف فى ريكياڤيك فى سنة ١٩٨٦م لمناقشة الحد من التسلح. وبعدها مباشرةً، تلقى ثلاثمائة ألف دولار من دار «راندوم هاوس» للنشر لتدوين كتابه «الخط المتشدد ـ Hard Line» (١٩٩٢م) فى السياسة. وشرح فى فقرة واحدة كيف أمكن لموظف مغمور أن يكتسب كل هذا النفوذ فى واشنطن: «كانت المعرفة قوة. فكلما عرفتَ أكثر كلما زادت قدرتك على استغلال ما تعرف فى توسيع إمبراطوريتك أو تقديم أولوياتك السياسية على أولويات غيرك ـ أو كلاهما معًا». وفى عهد چورچ بوش الابن، احتل بيرل منطقة وسطًا بين الحكومة والحياة الخاصة. وكان فى منصبه كرئيس «مجلس السياسات الدفاعية» (حتى ٢٠٠٣م حين اضطر للاستقالة من رئاسة المجلس دون عضويته فيه، بعد شجار حول صراع المصالح) من الإدارة ولكن ليس فيها. وأعطاه وضعه هذا الحرية التى كان يحتاجها لتأمين مسار أمكن لساسة أكثر عرضة للمساءلة ـ مثل رامسفيلد و وولفوويتز أن يتبعوه من بعده. ومن المرات القلائل التى كُبح جماحه فيها عندما أجرى حديثًا حول تركيبة عراق ما بعد الصراع قبل الحرب بتسعة أشهر (ومن حديقة بيته بفرنسا فى وقت كان البيت الأبيض يعانى فيه سخونة شديدة).

لا أحد يثير أعصاب الديپلوماسيين الأوروپيين أكثر من بيرل. وهو متخصص فى تجسيد أسوأ مخاوف الليبراليين من السياسة الخارجية الأمريكية كما لو كانت حقائق

معترفًا بها كونيًا. وفى الليلة التى سبقت خطبة حالة الاتحاد التى ألقاها بوش فى سنة ٢٠٠٢م، وفى موجز للصحافيين ـ ومنهم عدد كبير من الأوروبيين ـ قال إن بوش تخلص من أفكار كلينتون الفاشلة عن «العولمة» وتبنى مبدأ «الغرب الوحشى». قال بيرل لمستمعيه المذعورين من صحيفة لوموند والتليفزيون الألمانى إن مهمة أمريكا أن تجمع بعضًا من حلفائها ثم تمتطى الجياد معهم ويخرجون للنيل من الأشرار. وبعد انتهاء الحرب على العراق، كان من أوائل من اعترفوا بأن أسلحة الدمار الشامل كانت مجرد ذريعة للحرب (الهدف الحقيقى تغيير النظام الحاكم)، وقال لأصدقائه الأوروبيين إن السياسة الخارجية الأمريكية يمكن تلخيصها فى كلمتين: «من التالى؟».

رئيس مستقل

إذن فالمحافظون الجدد أناس يتصفون بالذكاء وسعة الحيلة ووضوح الهدف. ولكن ليس من هذه الصفات ما يثبت تهمة الاختطاف. فهم فى النهاية يعملون بأمر من الرئيس لا العكس. قد يقدمون نصيحة ذكية ولكنهم لا يتخذون القرار الأخير. ومعظم نقاد بوش لا سيما فى أوروبا، ملتزمون بفكرة مفادها أنه مهرج مشوش الذهن لدرجة أنهم دائمًا يبحثون عن مخه ـ فى رأس كارل روف أو فى مكتب نائب الرئيس أو فى عصبة من المحافظين الجدد. لكن الحقيقة أقل من ذلك.

ظل بوش طوال حياته العملية، ولا يزال، يستغل الناس والأفكار لحل مشكلات بعينها. فقال فى أثناء حملته الانتخابية فى سنة ٢٠٠٠م: «قد لا أتمكن من تمييز الفروق الدقيقة فى مشكلة تيمور الشرقية، ولكنى سأسأل كونداليزا رايس أو پول وولفوويتز أو سأسأل ديك تشينى. سأسأل أهل الخبرة».[١٩] وهو لا يجد غضاضة فى منح تعاقد من الباطن لتنفيذ إستراتيچية ما ـ كان يبدو سعيدًا بترك تنفيذ حربى أفغانستان والعراق لوزارة الدفاع، ولكنه مع ذلك يحرص على أن تكون القرارات الأخيرة بيده وحده، وهو ما اكتشفه ديك تشينى فى أغسطس ٢٠٠٢م، حين سخر من فكرة سعى الولايات المتحدة لاستصدار قرار آخر يخص العراق فى الأمم المتحدة. إضافة إلى ذلك، كان بوش دائمًا يُعافى نفسه من التماهى مع فريق بعينه أو فكرة بعينها. وقد استثمر الكثير فى النزعة المحافظة الرحيمة وهو موضوع أثير إلى قلبه وكان محوريًا فى حملته الرئاسية

فى سنة ٢٠٠٠م. ولكن حين لم تعد مبادرات چون ديلوليو القائمة على الإيمان تبدو عملية، فإنه تغاضى عن «مسألة الرحمة برمتها» حسب تعبير أحد المطلعين فى البيت الأبيض.

ويقال إن أفضل طريقة للتعرف على علاقة بوش بالمحافظين الجدد هى المال والأعمال. فإذا استنتج أحد المسئولين التنفيذيين أن مجموعة بعينها من العاملين خرجت بحل ناجع لأزمة ما، فإن هذا لا يعنى أن يمنحهم مقعدًا بمجلس الإدارة. وباستثناء وولفوويتز الرجل الثانى بوزارة الدفاع، فإن «مجلس» إدارة بوش لا يضم محافظين جددًا خلصًا بعقليات إمپريالية ديمقراطية.

إذا أمعنا النظر فى العديد من سياسات الإدارة التى يفترض أن تكشف الأيادى الخفية لمحركى الدمى من المحافظين الجدد، فإننا سنجد دوافع أخرى. فعندما دعا بوش، على سبيل المثال، للإطاحة بياسر عرفات فى سنة ٢٠٠٢م، ظن كثير من الأوروپيين أن المحافظين الجدد يشدون خيوطه لمد يد العون لحزب الليكود، فعرفات على أى حال كان الزعيم المعترف به (والمنتخب) لشعبه. والحقيقة أن أسباب بوش تبدو عملية وشخصية بقدر ما هى أيديولوچية. فكان الرئيس بجديته الشديدة فى مسألة الثقة، حانقًا على عرفات لكذبه بشأن شحنة متفجرات من إيران. وصرح بوش فى أثناء مأدبة عشاء مراسلى البيت الأبيض قائلاً: «لا يمكن عقد صفقة سلام مع هذا الرجل. إنه خدع الرئيس كلينتون».[٢٠] وما إن نحى الفلسطينيون عرفات واختاروا محمود عباس رئيسًا للوزراء، حتى عاد بوش لعملية السلام وأرغم الإسرائيليين على حضور قمة سلام بشرم الشيخ فى يونيه ٢٠٠٣م. ومع أن هذه الجهود باءت بالفشل، فإنه تشبث بفكرة ضرورة أن تكون للفلسطينيين دولة قابلة للحياة، وضاعف جهوده بعد موت عرفات فى سنة ٢٠٠٤. ونظرًا لأن جل المحافظين الجدد يحلمون بدفع الفلسطينيين إلى داخل الأردن ويعتبرون خريطة الطريق «بعثًا مؤسفًا» لسلام أوسلو[٢١] الذى يبغضون؛ فإن سياسة بوش فى الشرق الأوسط لا تزال تنأى بنفسها قليلاً عن سيناريو المحافظين الجدد؛ وتتم موازنتهم بوزارة الخارجية التى عزز من موقفها نفوذ تونى بلير.

صحيح أن هذا التوازن لا يؤثر فى سياسة بوش فى الشرق الأوسط والمنحازة تمامًا لإسرائيل - بل لعناصر متشددة فيها كأرييل شارون. لكن تبعة ذلك لا يمكن أن تلقى

على المحافظين الجدد. فالتأييد القوى لإسرائيل ليس مسألة خاصة بالمحافظين الجدد. فأمريكا ـ ولا سيما أمريكا المحافظة ـ تساند إسرائيل بشدة، وازدادت هذا المساندة غداة ١١ سبتمبر. وفى أبريل ٢٠٠٢م، بين استطلاع لجالوب انقسامًا فى صفوف الجمهوريين بنسبة ٦٨ ٪ يؤيدون الانحياز الإسرائيلى، مقابل ٨٪ يرفضون ذلك، فى حين أن الانقسام بين الديمقراطيين الذين يشملون معظم الناخبين اليهود بلغ ٤٥ إلى ٢١ ٪. ويستشهد داڤيد فرام كاتب خطب بوش، وهو من المحافظين الجدد، بسؤال وجهه سيده [بوش] لكارل روف: «كيف ترى جماعتنا الصراع الإسرائيلى الفلسطينى؟» فأجابه: «يعتبرونه جزءًا من حربك على الإرهاب». (٢٢)

هذا يؤكد وجهة نظرنا. فالسياسات التى يتبعها بوش بعد ١١ سبتمبر لم تعد مجرد سياسات محافظين جدد، بل أصبحت سياسات محافظة ـ سياسات ترن أصداؤها فى أمة اليمين. ومن الذى عارض الحرب على العراق؟ بالتأكيد ليس كولن پاول الذى كان فى طليعة سياسة الإدارة برمتها. هنرى كيسنچر الذى يفترض أنه أبو الواقعية السياسية اللا أخلاقية وقف بعيدًا عن البيت الأبيض. فسياسة أمريكا الخارجية المحافظة الجديدة لم تكن مسألة تحويل مسار ناهيك عن الاختطاف. بل إن رؤى شريحة واحدة من التحالف كانت تبدو حتى ذلك الوقت مختلفة، تحولت فجأة لتواكب الحركة برمتها. لم يكن المحافظون الجدد متآمرين يعملون تحت ستر الليل يقولون فى العلن ما يضمره الكثير من المحافظين. فبعد ١١ سبتمبر، أصبح الحل الذى ارتآه المحافظون الجدد هو الحل الأمريكى فى نظر المحافظين على الأقل.

الجانب الأيمن من حركة المحافظين الجدد

يمكن تقسيم رؤية المحافظين الجدد للعالم إلى ثلاثة أقسام، أولها تشخيص متشائم، ثم حلين راديكاليين ـ أحدهما واقعى بصورة وحشية، يؤيد انفراد أمريكا بالقوة، والآخر رؤية متفائلة ترى حتمية نشر القيم الأمريكية لا سيما فى الشرق الأوسط. وسرعان ما اصطفت بقية أمة اليمين وراء التشخيص المتشائم وتأييد الانفرادية الأمريكية؛ وفى مرحلة ما من نوبة السعار على العراق، اعتنقت عقيدة تحويل المسار الحالمة ولكن ليس لمدة طويلة.

أولاً: التشخيص. فى التسعينيات لم يكن المحافظون الجدد وضعوا ثقة كبيرة فى «الهراء العالمى» الدائر حول القرية العالمية التى تربط بينها شبكة من التجارة والمعاهدات. وبدلاً من ذلك بدءوا من فرضية أن العالم أصبح مكانًا غير آمن. كانوا يرون أن الدول والشعوب حبيسة صراع هوبزى(*) على المصلحة، وكانوا يجدون قوى الفوضى فى كل مكان: حكومات تنهار أو تتآمر مع الإرهابيين، ومهربى المخدرات، ومدن كبرى تعج بالعاطلين والشباب الفاقد للاتجاه؛ ومتعصبون دينيون يستغلون الجوامع والمدارس فى البحث عن متحولين جدد؛ ومهاجرون يفرون من عالم الفوضى ليجلبوا التطرف الدينى إلى قلب مدن الغرب الكبرى. كما كان المحافظون الجدد منشغلين منذ وقت طويل بأسلحة الدمار الشامل. كانت «معاهدة حظر الانتشار» و«الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية» و«معاهدة سولت» وغيرها من الكلمات الكبيرة تمثل بالنسبة لمعظم الساسة توافه مملة تحتمها مهنتهم ـ أشياء كان هنرى كيسينجر يشير إليها فى نهاية المؤتمرات الدولية ـ لكن أناسًا مثل پيرل و وولفوويتز كانوا تجار صواريخ منذ أمد بعيد. كانت أولى مهام وولفوويتز فى واشنطن العاصمة فى سنة ١٩٦٩م المشاركة فى الدفاع عن خطة نيكسون لبناء منظومة صواريخ مضادة للصواريخ البالستية. وأجاب المحافظون الجدد على جماعة «نهاية التاريخ» بأن العولمة والتقنية اللتين تحتفون بهما تضع بين أيدى الإرهابيين والدول المارقة قوة نارية مدمرة أيضًا. إنتاج القنابل النووية يزداد سهولة، وصار من السهل أن تعبئ قوة تدميرية فائقة فى حقيبة صغيرة، وبات من اليسير أن تحيل أدوات التجارة من طائرات أو نظم حواسب إلى أسلحة للدمار.

لم يكن يساور المحافظين الجدد شك فيمن سيتولى ضبط الأمن فى هذا العالم غير الآمن. فالولايات المتحدة كانت آنذاك تعيش فى «عالم ذو قطب واحد» (وهى عبارة صكها معلق من المحافظين الجدد هو تشارلز كراوتهامر فى سنة ١٩٩١م). وفى سنة ٢٠٠٢م، كانت موازنة أمريكا العسكرية أكبر من نظيراتها فى الدول الأربع عشرة التالية لها فى المرتبة مجتمعة. وفى معظم الجوانب عالية التقنية فى حرب الفضاء، كانت الولايات المتحدة فوق شاشة الرادار الأوروپى. والفجوة رهيبة حتى فى عالم

(*) قال الفيلسوف الإنجليزى هوبز: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.

الآلات العادى. ولماذا تكلف دولة لديها سبع وثمانون طائرة نقل سى ١٧ نفسها عناء المساومة والمماحكة مع أوروبا الغربية التى لا تستطيع أن تمتلك أكثر من أربع منها؟[٢٣]

كانت هذه الرؤية تلامس دائمًا وترًا حساسًا لدى القوميين الحازمين. فكانت الدائرة المحيطة ببوش تتفق دائمًا مع المحافظين على الطبيعة الخطيرة للعالم وأهمية مواجهة الخطر بالقوة العسكرية. وفى ملحوظة كتبها فى أثناء حملته الانتخابية، قال بوش إن «هذا العالم لا يزال عالم الإرهاب والصواريخ والمختلين». [٢٤] وكان «التوجيه التخطيطى الدفاعى» الراديكالى لوولفوويتز، خطة ١٩٩٢م التى دفنت فى هدوء، تم تجهيزه فى الحقيقة لديك تشينى. فيبدو أن أحداث ١١ سبتمبر كان لها تأثير بالغ على نائب الرئيس، إذ شرع على الفور فى تصور مدى سوء الموقف لو استُعملت أسلحة دمار شامل. وكان رد فعل رامسفيلد مشابهًا، فهو يقول لأصدقائه حاليًا إنه يبدأ يومه بالتساؤل كيف يمكن تفادى هجوم إرهابى رهيب على الولايات المتحدة؛ وهو أيضًا له تاريخ مع القلق من استعمال أسلحة الدمار الشامل. وفى ١٩٩٨م، رأس لجنة ضمت وولفوويتز حذرت من احتمال أن تكون لدى إحدى الدول المارقة القدرة على ضرب الولايات المتحدة بصاروخ فى غضون السنوات الخمس التالية (ثلث المدة التى قدرتها هيئة الاستخبارات الأمريكية). [٢٥] وحذرت اللجنة نفسها فيما بعد من «بيرل هاربور فضائية» قد يتمكن أعداء أمريكا من تعطيل أقمارها الاصطناعية، ومن هنا تبرز حاجة الولايات المتحدة لـ «مواصلة تسليح الفضاء بأسرع وقت ممكن». [٢٦] وفى كلمته التى أعلن فيها قبوله دعوة بوش لتولى منصب وزير الدفاع، قال رامسفيلد إن مهمته الأولى «تحويل» الجيش بحيث يصبح أقدر على التعامل مع الخطرين المتلازمين: الدول المارقة والأسلحة غير التقليدية.

مبدأ بوش

أدت رؤية المحافظين الجدد المظلمة للعالم إلى أول حل لديهم، وهو حاجة أمريكا لأن تتخذ مسارًا أكثر انفرادًا. وكانت هذه الفكرة شائعة فى أوساط اليمين؛ ويقال إن كل ما يفعل المحافظون الجدد هو صوغ ما كان يعتمل فى خاطر كل من بوش وتشينى فى نظريات بليغة. فالمعاهدات والبيروقراطيات الدولية فى رأى المحافظين الجدد قد تصلح

لقوة إقليمية كالاتحاد الأوروبى الذى أمضى الخمسين سنة الماضية فى السعى لتحويل تحالف اقتصادى إلى آخر سياسى، فى حين أنها تمثل عوائق بالنسبة للولايات المتحدة. فلأمريكا مصالح والتزامات ليست للقوى الأصغر. فما الذى يدعو دولة تضبط الأمن على حدود كوريا الشمالية بما تحتويه من مليون لغم أرضى أن تتقيد بتوقيع معاهدة حظر الألغام الأرضية؟ وما الذى يضطر أكبر ديمقراطية فى العالم للحصول على الشرعية من كيان كالأمم المتحدة يسمح لكوبا بأن تكون عضواً بلجنة حقوق الإنسان فيه؟

كانت أحداث ١١ سبتمبر دليلاً رهيبًا للمحافظين الجدد على صحة رأيهم. فالمعاهدات لم تفلح كثيراً فى ردع أنظمة مارقة كطالبان، ولم تفلح فى وقف متعصبين كأسامة بن لادن. والسبيل الواقعى الوحيد للتعامل مع بن لادن هو أن تقضى أمريكا عليه بقوتها العسكرية ويستحسن أن يتم ذلك بعمل وقائى لا برد فعل. وأشار المحافظون الجدد إلى الضربة الوقائية الناجحة للمفاعل النووى العراقى فى يونيه ١٩٨١م قبل أن يتمكن من صنع أسلحة نووية، كمثال للقضاء على المشكلة فى مهدها. أما الحاجة لموافقة الأمم المتحدة على عمل كهذا، فهذا مجرد تمثيل صامت. «فالمصدر الوحيد للشرعية بالنسبة للولايات المتحدة» فى رأى أحد كبار المحافظين الجدد موجهًا كلامه لجماعة من الأوروبيين المذعورين فى سنة ٢٠٠٣م هو «دستورنا».

ما كانت الدوائر القريبة من بوش لتعلنها بهذه الصراحة لحلفائها ولو سراً. إلا أن أية تحفظات كانت لدى القوميين الحازمين مثل تشينى ورمسيفلد عن الانفرادية، اختفت فى الحادى عشر من سبتمبر. واعتمدت أمريكا على تحالف ممن وافقوا على القضاء على طالبان فى أفغانستان متجاهلة عرض حلف الأطلنطى بالمساعدة. وفى صيف ٢٠٠٢م بلور البيت الأبيض موقفه، أولاً فى كلمة بوش أمام خريجى «وست پوينت» فى أول يونيه، ثم فى «إستراتيچية أمن قومى» جديدة تم الكشف عنها فى سبتمبر. فأعلن بوش أن أمريكا تجاوزت الأفكار العتيقة كتوازن القوى. وفى ظل «مبدأ بوش» اعتمد أمن أمريكا على كونها المهيمن الأوحد الأقوى من أية قوة أخرى. ورأت «إستراتيچية الأمن القومى» لسنة ٢٠٠٢م، أن القوات الأمريكية «ستكون من القوة بحيث تثنى أعداءها عن متابعة بناء قوة عسكرية أملاً فى التفوق على قوة الولايات المتحدة أو حتى التعادل معها». وهذا التفوق سيخيف المهاجمين، وسيسمح لأمريكا

بإقرار السلام بما «يجعل سباقات التسلح التى نشبت فى العصور السابقة بلا معنى، ويحد مما يعوق التجارة وغيرها من مساعى السلم» كما قال بوش أمام خريجى «وست پوينت».

لم تكن مسألة استخفاف بالقيود الدولية. فمبدأ بوش بين أن سياسة أمريكا ستكون دائمًا سياسة وقاية [ضربات إجهادية أو استباقية] لا احتواء ولا ردع. وإستراتيچيات الحرب الباردة هذه التى أعلنها بوش أمام خريجى وست پوينت لا تزال سارية «فى بعض الحالات»، لكن «التهديدات الجديدة تتطلب فكرًا جديدًا». وفسر قائلاً: «لو انتظرنا حتى تتحقق التهديدات كاملة فسيفوت الأوان».[٢٧] وواصل قائلاً: «علينا أن نذهب بالحرب إلى العدو ونبطل خططه ونواجه أسوأ التهديدات قبل ظهورها».

كما فى الكثير من المسائل الديپلوماسية، يمكن القول إن هناك سوابق لذلك المبدأ. وتشير «إستراتيچية الأمن القومى» إلى أن «الولايات المتحدة تبنت خيار الإجراءات الوقائية لمدة طويلة». وهناك من يعود بالفكرة إلى تصريح لدانيل ويبستر وزير الخارجية فى سنة ١٨٤١م بأن الهجمات الوقائية يكون لها ما يبررها لو استدعت «ضرورات الدفاع عن النفس بصورة فورية عاجلة لا تدع اختيارًا للوسائل ولا لحظة للتروى».[٢٨] وهكذا لم تتوقف أمريكا عن العمل من خلال الهيئات متعددة الأطراف فجأة فى سنة ٢٠٠٢م. ولكن كان مبدأ بوش بأى معيار من المعايير يمثل تحولاً جذريًا عن الماضى - لا عن عولمة كلينتون وحدها، بل عن الفكر الجمهورى القديم عن السياسة الخارجية. فأيزنهاور مثلاً كان يستنكر «الحرب الوقائية» بوصفها «استحالة»، وكتب ترومان يقول: «الحرب لا «تقى» من شىء سوى السلم».[٢٩] وبعد ثلاثة عشر يومًا من كلمته فى وست پوينت، تحدث بوش بسعادة فى أثناء مأدبة عشاء لجمع التبرعات فى تكساس عن «إستراتيچيتنا الوقائية الجديدة».[٣٠]

ومرة أخرى سارع الأوروپيون إلى استنتاج أن المحافظين الجدد اختطفوا سياسة أمريكا الخارجية. إلا أن الحقيقة الواضحة هى أن هذا الموقف الأحادى الأقوى نزل على قلب أمريكا المحافظة بردًا وسلامًا. فهذه سياسات لطالما دافع عنها تشينى ورامسفيلد: فلو كانت القومية الحازمة تعنى شيئًا فإنها تعنى استعمال قوة أمريكا فى ضرب التهديدات المحتملة وقبل ظهورها إن أمكن. وبصورة أعم، كان مبدأ بوش صدى

لمسألتين شاعتا فى الدوائر اليمينية منذ عقود ولا سيما فى «حزام الشمس»، أولاهما أهمية نزع القفازات. فالمحافظون اهتزوا ـ كغيرهم ـ من مهانة أمريكا فى ڤيتنام، ولكنهم استقوا استنتاجًا عكسيًا من نظرائهم الليبراليين ـ لا بأن أمريكا غرقت فى حرب لا يمكن الانتصار فيها بل أنها فشلت فى الدفع بما يكفى لتحقيق النصر. ولنتذكر حماس بارى جولدواتر لاستعمال أسلحة نووية «محدودة القدرة» فى جنوب شرق آسيا. والمسألة الأخرى القيمة المحدودة للهيئات متعددة الأطراف. فلطالما وقف أقصى اليمين ضد الأمم المتحدة كناطق بلسان الحكومة العالمية، لكن كثرة من الجمهوريين العاديين (وبعض الديمقراطيين ومنهم پاتريك موينيهن) شرعوا فى انتقاد الهشاشة العامة للأمم المتحدة. فحظى چيسى هيلمز بثناء كبير فى اليمين حين جعل إصلاح الأمم المتحدة شرطًا للتمويل الأمريكى.

فى الفترة التى أعقبت ١١ سپتمبر، طفت هذه الانتقادات على السطح. ولم يتجسد عن ذلك سوى أمرين فى نظر اليمين: الأول أن أمريكا كانت فى خطر؛ إذ تم ضربها فى دارها وباتت تواجه احتمال تسلح مهاجميها أنفسهم بأسلحة دمار شامل، والثانى أن أمريكا دخلت معركة بين الخير والشر. وهنا ومرة أخرى وجد المحافظون الجدد لرسالتهم صدى لدى القاعدة الجماهيرية. هذا فى حين أصاب القلق معظم المثقفين سواء فى أمريكا أو فى أوروپا إزاء المطلقات الأخلاقية وآثروا رؤية الدنيا بظلال رمادية. وبعد ١١ سپتمبر، بدأ الأكاديميون الليبراليون البحث عن أسباب تفسر حالة القاعدة: هل هى نتاج العنصرية؟ أم الظلم الاقتصادى؟ أم سياسات أمريكا فى الشرق الأوسط؟ ومن ناحية أخرى كان المحافظون الجدد، وهم من نسل من فروا من النازية والشيوعية، يؤمنون دائمًا بوجود الشر فى الدنيا، ويستخفون بكل من يحاول تفسيره بدلاً من محاربته. فسارعوا بتصوير أحداث سپتمبر كأنها نتيجة لاقتران التعصب الدينى بالشمولية، وتحدثوا عن «الفاشية الإسلامية» و «الشر».

كان ذلك من دواعى سرور حركة المحافظين. فلم يكن يساور المحافظين المسيحيين شك فى أن ضرب البرجين التوأمين من عمل الشيطان. اصطفت جريدة وال ستريت چورنال، مع رش ليمبو وشقراوات فوكس الإخبارية، لشجب التأويلات «المعقدة» للإرهاب باعتباره ثمرة الفقر أو الظلم ووصفوها بالهراء الفارغ. أليس بن لادن صاحب ملايين؟ أليست السعودية أكبر مصدر للنفط فى العالم؟ أما احتمال أن تكون

إسرائيل مسئولة بأية صورة من الصور عن السخط العربى، فإن اليمين يستشيط غضبًا (لا سيما حين يسعى الفلسطينيون لإيضاح حججهم للشعب الأمريكى بينما يواصلون اتباع نهج بن لادن فى العمليات الانتحارية).

الحقيقة أن هذا عزز واحدة من أغرب الزيجات فى حركة المحافظين. فاليمين الدينى كان يؤيد إسرائيل منذ السبعينيات على الأقل. ويؤمن الإيڤانجليكيون بأن «المجئ الثانى» سيحدث فى إسرائيل - وسيسبقه تحول اليهود إلى المسيحية؛ من ثم فلا بد من إنقاذ اليهود وإسرائيل حتى يحققا دورهما فى العقيدة الأخروية المسيحية. فكان محور مؤتمر «التحالف المسيحى» فى سنة ٢٠٠٢م استنهاض الهمم من أجل إسرائيل. وتنفق التجمعات الأصولية الملايين لدعم المستعمرات اليهودية. وإذا زرنا كنائس الأصولية لوجدنا صلوات تقام للدعاء بأن تتمكن إسرائيل من الحفاظ على الأراضى التوراتية فى يهوذا والسامرة.

قد نتصور أن المحافظين الجدد كمثقفين علمانيين يعتبرون هذا التخمير الأخروى لاذعًا قليلاً بالنسبة لهم، وأنهم كيهود سيستوقفهم كونهم مجرد لبنة صغيرة فى العقيدة المسيحية. إلا أن المحافظين الجدد يتصفون دائمًا بالبراعة فى كبت انفعالاتهم إزاء هذه الموضوعات، ويعاملون التزمت المسيحى باعتباره «خرافة حميدة» إستراوسية - قد تكون محض هراء ولكنها تخدم قضية المحافظين. قد يخرجون عن الإجماع أحيانًا - بيل كريستول ساند مسعى چون ماكين لفك قبضة اليمين الدينى الخانقة حول رقبة الحزب الجمهورى - إلا أن تسامح أبيه اللا متناهى إزاء هفوات اليمين الدينى كان يمثل الموقف الأصيل للمحافظين الجدد. وفى أحد مقالاته، أثنى إيرڤنج كريستول على اليمين الدينى لدوره الحيوى فى خلق الأغلبية الريجانية - ونسى أن يذكر أن پات روبرتسون سبق أن قال أشياء فظيعة عن اليهود.[٣١]

لم تؤد المناورات الدبلوماسية فى شتاء ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م والتى سبقت حرب العراق إلا إلى تقوية العلاقة بين المحافظين الجدد وبقية حركة المحافظين. وكان من أسباب ذلك أن إدارة بوش لم تفعل شيئًا لإخماد فكرة مفادها أن صدام حسين كان ضالعًا فى أحداث ١١ سپتمبر (وهى خرافة ظلت غالبية الأمريكيين تصدقها حتى ٢٠٠٣م). إلا أن السبب الأول كان الإحباط المتنامى فى أوساط أمريكا المحافظة إزاء آلية تعددية

الأطراف. كان معظم المحافظين يرقبون المناورات الديبلوماسية التى سبقت الحرب واستنتجوا أن المحافظين الجدد كانوا على حق. فالأمم المتحدة أقرب إلى برلمان إنسانى موجه للخير العام منه إلى ساحة تسعى فيها الدول المتنافسة لتحقيق مصالحها القومية. وتمكن بوش من تمرير أول قرار بالإجماع ـ ١٤٤١ ـ فى مجلس الأمن فى ٨ نوفمبر ٢٠٠٢م يوجه للعراق إنذارًا أخيرًا. ولكنه حين حاول بإلحاح من تونى بلير الحصول طوال فبراير ٢٠٠٣م على قرار آخر يخول اللجوء إلى القوة وجد نفسه يواجه ـ على حد وصف نيويورك تايمز ـ «محور العرَس» بقيادة فرنسا وروسيا وألمانيا.

الحقيقة أن معارضة القرار الثانى كانت تذهب إلى ما هو أبعد من هذه الدول الثلاث. إذ أخفقت أمريكا فى الحصول على تأييد حلفاء تقليديين لها كالمكسيك وتشيلى، ولم تتمكن قط من كسب الأصوات التسعة المطلوبة بمجلس الأمن (مما اعتبره النقاد مؤشرًا مبكرًا على أن للانفرادية ثمنًا). لكن أمة اليمين ركزت انتباههم على فرنسا واستفزهم تهديد شيراك فى ١٠ مارس ٢٠٠٣م بأن يستخدم حق النقض على أى قرار ثان «مهما كانت الظروف». لم يكن الدافع إلى ذلك فى نظر أمريكا المحافظة المبادئ أو الرَّغبة فى إيجاد حل تفاوضى، بل مجرد أن مصالح فرنسا فى المنطقة تختلف عن مصالح أمريكا. وأشارت قناة فوكس ورش ليمبو وغيرهم، إلى أن الفرنسيين كانوا من كبار المستثمرين فى نظام صدام، وأن فرنسا تحلم منذ عهد بعيد بأداء دور القوة الموازنة للقوة الأمريكية. فتغير اسم البطاطس الفرنسية المقلية French Fries إلى «الحرية المقلية – Freedom Fries»، وهبطت مبيعات النبيذ الفرنسى. وماذا عن مساندة معظم الدول الأخرى للخط الفرنسى؟ هذا أمر أثبت قدرة الفرنسيين على الإقناع.

زادت هذه النزعة الأخلاقية من جديد بمجرد بدء القتال فى العراق فى التاسع عشر من مارس ٢٠٠٣م. وحررت أمريكا العراقيين من نظام وحشى فى فترة وجيزة. وأكد قيام أمريكا بذلك وحدها (بقليل من العون من الإنجليز) عظمة القوة العسكرية الأمريكية. وكانت أمريكا غزت بالفعل أفغانستان وهى دولة هزمت كلاً من الإنجليز والسوفييت. والآن تسحق صدام فى ثلاثة أسابيع دون التعرض للكوارث التى تنبأت بها الحركة المناهضة للحرب. ولم تخسر سوى ستين من جنودها، إذا استثنينا النيران الصديقة والحوادث العرضية. وما إن سقطت بغداد، حتى أسند بوش للأمم المتحدة دورًا صغيرًا فى إعادة إعمار العراق.

إمبريالى بالصدفة

كان المحافظون الجدد حتى ذلك الوقت يحتفظون بمساندة بقية حركة المحافظين. وبدلاً من أن تنزعج القاعدة الشعبية من سياسات «المحافظين الجدد» الجديدة التى اتبعها بوش، كالانفرادية والضربات الوقائية، شعرت بالارتياح بعثورها على مجموعة أفكار توافق عليها. ولم يكن القياس بالنسبة لأمة اليمين بـ «المرشح المنشورى»(*) بل لـ «هارى پوتر». ذلك الصبى النحيل ذو النظارة يظهر فجأة بالخطة التى تنقذ المدرسة كلها. إلا أن الجزء «التحويلى» الثانى للحل من منظور المحافظين الجدد ـ ليس مجرد ممارسة القوة الأمريكية، بل نشر قيمها ـ كان أصعب.

كان لدى المحافظين الجدد إيمان قديم بأن القوة الأمريكية يجب ربطها بالمبادئ الأمريكية، وبأن أمريكا عليها التزام بأن تنشر مُثلها وقيمها حول العالم. عليها أن تنسى التنازلات المشينة للسياسة الواقعية (مرة أخرى يرد ذكر چاك شيراك) وأن تربط القوة العسكرية بوضوح أخلاقى بالدفاع عن القيم الخالدة كالحرية والديمقراطية. فهذا هو الصواب فى رأى المحافظين الجدد. فسياسة دعم الأنظمة الفاسدة فى الشرق الأوسط ساعدت على إفراز حالة من الكراهية تجاه الغرب. والتحول الديمقراطى قد يؤدى إلى زعزعة الاستقرار على المدى القصير، ولكنه يؤدى إلى عالم أكثر استقراراً وأقل مشكلات على المدى البعيد. وكان معنى هذا أن أمريكا بحاجة لتحويل العراق إلى دولة ديمقراطية قدر حاجتها لخلع صدام. وقد تحتاج أمريكا أيضًا إلى التحرك صوب إيران وسوريا والسعودية.

كانت هناك كثرة من الناس فى أوساط المحافظين الجدد بلغ بها الحماس لنشر القيم الأمريكية حد التفكير فى خطيئة أوروبية قديمة هى الإمبريالية. قبل عشر سنوات، كانت الإمبريالية الأمريكية حلمًا يراود قلة من الناس. فقال كراوتهامر فى سنة ١٩٩١م فى تبريره للفكرة: «لماذا ننكرها؟ لم نخجل منها؟» وكان المناخ تغير إلى حد بعيد إبان حرب العراق. وآثر بعض المحافظين الجدد من أمثال روبرت كاجان مصطلح «الهيمنة» (بمعنى السيطرة على السياسة الخارجية للشعوب الأخرى وليست الدول بأكملها)، لكن غيرهم أصبحوا إمبرياليين صريحين. كتب ماكس بوت ـ أحد رعايا روبرت

(*) المرشح لأن يستقطبه ماوتسى تونج فى ثورته ليقوم بعمليات انتحارية لحساب الحزب الشيوعى.

بارتلى ـ فى مجلة «ويكلى ستاندارد» فى أكتوبر ٢٠٠١م يقول: «إن أفغانستان وغيرها من الدول التى تعانى مشكلات، تصرخ طالبة إدارة أجنبية مستنيرة كتلك التى كان يمثلها الإنجليز فى الهند». [٣٢] وفى يوليه ٢٠٠٣م، كتب فى صحيفة «فايننشنال تايمز» يقول إن أمريكا بحاجة لوزارة للمستعمرات. [٣٣]

قطعت إدارة بوش شوطًا بعيدًا فى تأمل هذه الفكرة. وكانت الإمبريالية انحرافًا عن إطار السياسة الخارجية «المتواضع» الذى وضعه بوش فى حملته الانتخابية. وهاجم الفكرة فى وست پوينت: «نحن لا نسعى لبناء إمبراطورية. فشعبنا ملتزم بالحرية لنا ولغيرنا». ولكن فى مايو ٢٠٠٣م، كانت إدارة بوش بصورة عامة تتصرف بطريقة إمبريالية؛ حيث شرعت فى إقامة حكومات من نوع ردىء فى كل من العراق وأفغانستان وأخذت تؤكد أن لها الحق ـ بل عليها التزام أخلاقى ـ فى نشر قيمها حول العالم و«مد نطاق السلم بتشجيع المجتمعات الحرة والمفتوحة فى كل قارة من القارات»، كما قال بوش أمام خريجى وست پوينت: «يساور البعض قلق بأنه من غير الديپلوماسى أو من الصفاقة أن نتحدث بلغة الصواب والخطأ، وأنا لا أوافق على ذلك».

والفكرة التى يبدو أنها طغت على بوش ـ إضافة إلى تشينى ورايس ورامسفيلد ـ فى أعقاب أحداث ١١ سپتمبر، هى أن الحرب على الإرهاب ينبغى أن تشن على الدول والإرهابيين على السواء. وما إن اقتنع كل من تشينى ورامسفيلد بأهمية الإطاحة برءوس الإرهاب الكبيرة، حتى بدءوا يقتنعون بأن أمريكا عليها التزام بإعادة بناء هاتين الدولتين الفاشلتين. وماذا كان عليهم أن يفعلوا غير ذلك؟ ترك أفغانستان والعراق مدمرتين سيكون إهانة لپراجماتية تشينى؛ فكان لا بد من إعادة بناء هاتين الدولتين حتى لا يسقطا على جانب الطريق. وفى ٢٠٠٣م، كان تشينى سعيدًا بالطبع وهو ينطق كلمة «إمبراطورية» وسط صحبة متعاطفة معه.

ولكن سرعان ما تبين أن فكرة القوميين الحازمين عن بناء الدول كانت أبعد ما تكون عن تلك التى نادى بها المحافظون الجدد. وكانت أفغانستان مثالاً واضحًا على تواضع فكرة إدارة بوش عن بناء الدول. فأمريكا أعادت معظم الدولة لأمراء الحرب، متجاهلة أن العديد منهم كانوا يديرون تجارة الهيروين فى البلاد، وتركوا حامية صغيرة بعض الشىء. بالمباينة، فى سنة ١٩٩٥م، أرسلت أمريكا وبريطانيا وفرنسا ستين ألفًا من

قوات حفظ السلام إلى البوسنة بعد انتهاء الحرب مباشرةً؛ بينما فى أفغانستان التى تبلغ مساحتها اثنتى عشرة مثل مساحة البوسنة وتضم سبعة أمثال تعداد سكانها، لم يكن هناك فى سنة ٢٠٠٣م سوى خمسة آلاف من هذه القوات التى تساعد على حفظ السلام واثنى عشر ألفًا يبحثون عن بن لادن. وفى تركيزهم على العراق، تجاهل المحافظون الجدد هذه الحقائق بدعوى أن أفغانستان حالة شاذة وسيطة. وكان المحك الحقيقى لبناء الدول هو الشرق الأوسط - وهنا أعلن بوش التزامه بنشر الديمقراطية فى المنطقة فى كلمته إلى «معهد الأعمال الأمريكى» قبل بدء حرب العراق ببضع أسابيع. ولكن ما إن أطيح بصدام، حتى تبددت الهوة بين «الإمبريالية الديمقراطية» و «القومية الحازمة» من جديد.

ربما كان وولفوويتز وغيره ملتزمين بتحويل الشرق الأوسط كمشروع نبيل طويل المدى، لكن هذا يثير غرائز الحذر فى نفوس معظم أمة اليمين. ففى أثناء حملة ٢٠٠٠م لانتخابات الرئاسة، انتقد بوش سياسة بيل كلينتون الخارجية، ووصفها بالضعف لأنها تقوم على المثالية لا على مجموعة واضحة من الأهداف، وشكا قائلاً: «نادرًا ما تم استعمال جيشنا بحرية [من قيود المعارضة الداخلية] - بمتوسط حملة واحدة كل تسعة أسابيع على مدار السنوات القلية الماضية». وكان بوش - بتوجيه من رايس - يتشدد فى انتقاد إدارة كلينتون لاستعماله الجيش فى بناء الدول لا لوظيفته التى خلق لها - «أن يحارب وينتصر فى الحروب». [٣٤] وهذا النزوع نحو الشك فى الفكر الجمهورى سرعان ما عاود الظهور. فكان كل من تشينى ورامسفيلد يميلان أكثر من المحافظين الجدد إلى اعتبار بناء الدول إجراء مؤقتًا. كانت أمريكا بالطبع بحاجة لترتيب أوضاعها فى العراق، وكانت بالطبع تعمل بكل قوتها لإيجاد أنظمة أكثر ودًا تجاهها فى المنطقة، إلا أنها كانت بحاجة لتحديد أولوياتها والحذر من تغير المهام.

أدت المشكلات التى واجهتها أمريكا فى العراق فى صيف ٢٠٠٣م إلى تعميق الانقسام بين مستشارى بوش والمحافظين الجدد. فكل جثة قتيل أمريكى وكل دولار يتم إنفاقه، كان يثبت للقوميين الحازمين خطر التورط فى الخارج. وسرعان ما تبين أن العراقيين أكثر انقسامًا مما تصور المحافظون الجدد حول الوجود الأمريكى. وعندما علقت القوات الأمريكية داخل ثكناتها ببغداد دون أن يكون لديها تدريب كاف أو

استعداد لمهام حفظ السلام، بدأ الجنود فى إرسال خطابات ورسائل بريدية غاضبة إلى ذويهم يشكون من تأخير عودتهم. وفى صيف ٢٠٠٣م، بدأت احتجاجات زوجات الضباط والجنود فى تكساس. وهبط تأييد الحرب على العراق تدريجيًا؛ وفى سبتمبر ٢٠٠٣م، انخفضت نسبة من يعتقدون أنها كانت فكرة جيدة إلى نصف الأمريكيين.

كان لدى المحافظين الجدد تفسير للتباطؤ فى العراق، وهو أن أمريكا لم تكن طموحة بما يكفى فى العراق. كان الهدف الأول لغضب مجلة «ويكلى ستاندارد» رامسفيلد الذى تُركت له مسئولية العراق بعد سقوط صدام. فبعد أن تعزز موقف رامسفيلد بنجاح أساليبه «المركزة» فى الحرب (أطاح بصدام بعدد من القوات أقل مما طلب قادة وزارة الدفاع) شرع فى بناء الدول بالأسلوب «البخيل» أيضًا بما لا يزيد عن مائة وخمسين ألفًا من القوات. وهناك بعض الأخطاء التكتيكية أضعفت موقف رامسفيلد، أهمها الاستعداد المأساوى بعد حرب جراحية كهذه لترك العراقيين المحررين ينهبون كثيرًا من بنيتهم التحتية. ولم يكن المحافظون الجدد وحدهم فى شكواهم من رفض أمريكا توجيه موارد كافية للعراق، فقد كان للإنجليز الشكوى نفسها.

ربما كان المحافظون الجدد على حق، إلا أنهم كانوا قد فقدوا أمريكا المحافظة ـ على الأقل من حيث الالتزام مفتوح النهاية بتغيير الشرق الأوسط. وفى خريف ٢٠٠٣م، كانت الاستطلاعات لا تزال تبين مساندة الجمهوريين المخلصة لحرب العراق واستعدادهم لمواصلتها. فبينما عبر ٥٨ ٪ من الديمقراطيين عن رغبتهم فى عودة القوات بأسرع ما يمكن، لم تزد هذه النسبة بين الجمهوريين عن ٢٠ ٪.[٣٥] ولكن كان هناك فتور فى الحماس تجاه الانتقال إلى دول أخرى، وكانت هناك أيضًا مطالبة واضحة بتحديد سقف للتوقيت والموارد. وفى مجلس النواب، بدأ الجمهوريون فى التمرد على تقديم الأموال للعراق وأصروا على جعلها قروضًا. فلم يعد السؤال هو «من التالى؟» كما قال ريتشارد بيرل، بل «كيف يمكن أن نخرج منها؟»

وفى سبتمبر ٢٠٠٣م، وبعد أن كشف تقرير «مكتب الموازنة التابع لمجلس النواب» عن أن الجيش لا يستطيع أن يبقى على احتلال العراق بعد مارس ٢٠٠٤م دون الإبقاء على جنوده بها لمدة أطول من سنة، غير بوش مساره ولكن ليس بالصورة التى كان المحافظون الجدد يريدون. فرجع إلى الأمم المتحدة التى يكرهها لطلب المزيد من العون

ونقل السيطرة على العراق من رامسفيلد بوزارة الدفاع إلى رايس بمجلس الأمن القومى. كان بوش غير رأيه بعد أن واجهه باول ومجموعة من قادة الجيش فى أوائل سبتمبر بأن أمريكا ستغوص فى مستنقع إن لم تحصل على عون خارجى. وكانت رايس التى تمثل الصوت الترجيحى فى بلاط سياسة بوش الخارجية تتراجع صراحةً إلى بعض من شكوكها الأولى حول بناء الدول (فطائرة وزير الخارجية قد تذهب بالأولاد إلى المدرسة ولكن لمدة فصل دراسى واحد على ما يبدو). فسارعت بتأييد باول الذى كان حظى من قبل بتأييد تونى بلير الذى كان تحت ضغط كبير فى بريطانيا لمسايرته أمريكا دون روية.

وجاء اعتقال صدام حسين فى ديسمبر وما تلاه من قرار ليبيا بفتح برنامجها النووى للتفتيش ليعطى البيت الأبيض دفعة كبيرة. ولكن مع دخول رئاسة بوش سنتها الرابعة عادت المعركة الكبرى داخل الإدارة بين الحمائم البراجماتيين والقوميين الحازمين. وواصل بوش فى الإلحاح على مسألة تغيير الشرق الأوسط. فمثلاً، فى نوفمبر ٢٠٠٣م، بعث بتحذير لكل من مصر والسعودية أقوى من تحذيره الذى بعث به فى «معهد الأعمال الأمريكى» فى بداية السنة بدعوى أن «الناس فى تلك المنطقة ضحايا ورعايا منذ عهد بعيد؛ ويستحقون أن يصبحوا مواطنين نشطين». إلا أن هذه اللغة المنمقة لم يصحبها أى التزام بزيادة مستويات القوات فى العراق، وكان أكثر عباراته تكرارًا فى خطبه إصراره الغاضب على أن أمريكا «لن تضرب وتهرب». إذ كانت العراق أصبحت مستنقعًا كبيرًا يصر على مواصلة الخوض فيه.

أما المحافظون الجدد فاتخذوا موقفًا دفاعيًا إلى حد ما. إذ وجدوا أنفسهم متهمين بتعمد صنع «خرافة حميدة» عن أسلحة الدمار الشامل لكى يبرروا مخططاتهم لإعادة ترتيب الشرق الأوسط ببعض تعبيراتهم المكيافيلية التى انقلبت عليهم. (روى بيل كريستول ذات مرة أن «من تعاليم شتراوس أن السياسة برمتها محدودة، وليس منها ما يقوم على الحقيقة».) لكن الإحراج الحقيقى للمحافظين الجدد كان الصدام البشع بين رؤيتهم للتغيير والواقع البائس فى العراق. وليس أدل على ذلك من لقاء مرتجل مع وولفوويتز بعد تفجير الفندق الذى نزل فيه ببغداد فى أكتوبر ٢٠٠٣م. فظل محتفظًا بتفاؤله عن مستقبل العراق ولكنه كان مهزوزًا فى داخله. وصدر كتاب جديد بعنوان «نهاية الشر: كيف ننتصر فى الحرب على الإرهاب ـ An End to Evil: How to Win

the War on Terrorism» من تأليف كل من فرام وبيرل فى نهاية السنة، ويعج بالمقترحات المثيرة، كفرض حصار على كوريا الشمالية وطرد سوريا من لبنان، ولكنه فى معظمه تخليص ثأر مع الخارجية الأمريكية.[٣٦] وأبدت كل من مجلة «ويكلى ستاندارد ـ Weekly Standard» و«معهد الأعمال الأمريكى» الغضب من عدم حدوث أى تقدم، ولكن يبدو أن البيت الأبيض لم يكن مصغيًا.

لم تكن المسألة فقدان المحافظين الجدد نفوذهم فى البلاط. فقد ظهر عدد من الثقوب الكبرى فى الإمبريالية الأخلاقية، أوضحها أن اكتشفت أمريكا المحافظة حدود قوتها: كان لديها أكثر مما يكفى لضرب أعدائها، أما إعادة بنائهم فيحتاج إلى عون أجنبى. وكان هناك عديد من الدول تنزعج من الجدل الدائر حول العراق ولا ترغب فى تقديم هذا العون ـ وهو ما طالما حذر منه جوزيف نای عميد كلية كنيدى فى هارڤارد وغيره من قدامى المراقبين الديپلوماسيين، وهو أن الانفرادية العدوانية تضر بـ «القوة اللينة» لأمريكا.[٣٧] ففى سپتمبر ٢٠٠١م، ساند العالم أمريكا حتى أن صحيفة لوموند قالت: «كلنا أمريكيون الآن». أما فى يونيه ٢٠٠٣م، فقد أظهر مسح أجرته الإذاعة البريطانية على أحد عشر ألف شخص من إحدى عشرة دولة (منها أمريكا نفسها وثلاثة من أقرب حلفائها وهم إسرائيل وبريطانيا وكندا) أن معظم الناس يرون أن أمريكا تمثل خطرًا أكبر على الأمن العالمى من الصين أو إيران أو سوريا أو روسيا أو فرنسا. وتساوت الولايات المتحدة مع كوريا الشمالية (ولو أن بوش كان يمثل فى كوريا الجنوبية خطرًا أكبر كثيرًا من كيم يونج إيل). وكانت القاعدة القوة الوحيدة التى اعتبرت أخطر من إدارة بوش.[٣٨] أما ثمن الوهن الديپلوماسى، فحتى النقاد المحافظين التقليديين فى أوروپا العجوز، مثل ماكس بوت، ذعروا عندما أصدر وولفوويتز مذكرة «حمقاء» فى ديسمبر ٢٠٠٣م باستبعاد شركات من كندا وفرنسا وألمانيا والصين وروسيا من عقود إعادة الإعمار فى العراق.[٣٩] ولم تكن المسألة أن وولفوويتز منح شركات معروفة متعددة الجنسيات من رواندە وأوزبكستان وجزر مارشال مقعدًا متقدمًا فى المناقصة، ولا أن كلاً من فرنسا وكندا وألمانيا كانت لهم قوات فى أفغانستان. فالمذكرة صدرت فى وقت كانت إدارة بوش تسعى فيه لإقناع كل من فرنسا وألمانيا وروسيا بإسقاط ديون العراق القديمة. وفى كل الأحوال، كان قدر كبير من رأس المال الأمريكى اللين قد تم استنفاده.

فى الوقت نفسه، انهار مبدأ الوقائية نتيجة الفشل فى العثور على أية أسلحة دمار شامل تستحق مثل ذلك الاسم. وكان المحافظون فى أمريكا مستعدين لتصديق أن تأكيدات بوش عن أسلحة العراق كانت أخطاء حميدة ناتجة عن خطأ استخباراتى (ولو أن الديمقراطيين وبقية العالم كانوا أقل تسامحًا). ومع ذلك ارتفعت معايير إثبات أى مشروع وقائى مستقبلى - مثلاً ضد «الأسلحة النووية» فى إيران أو «الأسلحة الكيماوية» فى سوريا - ارتفاعًا هائلاً كما أشار كثير من المعلقين المحافظين. فقال چورچ ويل: «إن الوقائية تفترض القدرة على معرفة الأمور وتحديد المخاطر بدرجة من اليقين لا تتطلبها قرارات أقل خطورة من قرارات شن الحروب».(٤٠) وكان حلفاء أمريكا أكثر حذرًا. فحتى فى لحظات الانتصار التى أعقبت انتهاء الحرب حين كان ريتشارد پيرل يتساءل: «من التالى؟» حادت حكومة بلير عن مسارها لتؤكد الفروق بين بشار الأسد فى سوريا وصدام حسين. كانت بريطانيا مستعدة لقصف العراق لعشر سنوات، وكان الأسد يتناول الشاى مع الملكة.

وبدأ حلم تغيير الشرق الأوسط يتبدد. لم يكن الأمر يتعلق بصعوبة إعادة بناء المجتمع المدنى فى العراق، فالبلاد غنية بثروتها النفطية وسكانها المتعلمين. فمع تعاظم نفوذ رجال دين شيعة محليين من أمثال آية الله على السيستانى، اتضح أن «العراق الديمقراطى» سيكون ذا مسحة إسلامية قوية وعداء سافر لأمريكا. وكان هناك تناقض واضح بين تشاؤمية تشخيص المحافظين الجدد (العالم مكان أخطر مما تتصور) وتفاؤلية ثقتهم فى التغيير. وأول جيل من مثقفى المحافظين الجدد صنع سمعته من خلال إظهار «حدود السياسة الاجتماعية» - عجز البيروقراطيين عن الوفاء بوعودهم بخفض الفقر أو تحسين التعليم. فكيف تكون الحكومة أقدر حين ترتدى السترة العسكرية فى العراق البعيد؟

وصلت الشكوك حول مهمة التغيير الأمريكية حتى إلى «معهد الأعمال الأمريكى». وسئلت چين كيركپاتريك عجوز الدبلوماسية المحافظة فى أغسطس ٢٠٠٣م عن حماس المحافظين الأمريكيين لـ «الإمپريالية الأخلاقية» فأجابت: «لا أعتقد أن هناك أى دليل على جدية فكرة كهذه فى أى مكان إلا فى بضع أماكن فى واشنطن العاصمة».(٤١) وإذا أخذت العبارة بمعناها الظاهرى، فإن أية سياسة خارجية

أخلاقية بحتة ستدفع أمريكا إلى افتعال حرب مع الصين (تذكر أن العديد من المحافظين الجدد كانوا ضد تطبيع العلاقات التجارية معها). كما أنها ستدفع الولايات المتحدة إلى الإمساك بخناق كوريا الشمالية، وهو أمر كانت أمريكا فى حاجة ماسة إلى عون الصين للإقدام عليه. وكيف يمكن لأمريكا الجديدة هذه التى تنشر الديمقراطية أن تتعامل مع بعض حلفائها الأقل قبولاً ـ فى الحرب على الإرهاب مثل پاكستان وروسيا؟ والمحافظون الجدد فى رأى العديد من المراقبين الأجانب لا يهمهم إلا نشر الديمقراطية فى دول قد تهدد إسرائيل. وفى هذا الصدد، كان الأوروپيون أقل ميلاً من وولفوويتز وپيرل لاعتبار إسرائيل نموذجًا قياسيًا للديمقراطية على الطريقة الأمريكية. ففى خارج أمريكا، كانت رمز «الديمقراطية فى الشرق الأوسط» فى نظر المحافظين الجدد تُشبِّه بجنوب إفريقيا فى عصر التمييز العنصرى.

مجانين وأشرار وخطرون

إذن فالمحافظون الجدد كانوا يبالغون حين يتعلق الأمر بالإبقاء على نصرة أمة اليمين لهم. ولكن من الخطأ أن ننهى حديثنا دون الإشارة إلى مدى تغييرهم السياسة الخارجية الأمريكية. ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان دين أتشيسن (الذى أصاب باختياره عنوان مذكراته «حاضر تحت التكوين ـ Present at Creation» العقل المدبر لإنشاء مؤسسة سيطرت على السياسة الخارجية الأمريكية طوال نصف قرن، وكانت تعمل بأسلوب مؤسسى (مهذب وأوروپى الطابع) وبمبدأ مؤسسى (الاحتواء). وفى أعقاب هجمات ١١ سپتمبر، شرع چورچ بوش الابن فى إنشاء مؤسسة جديدة للسياسة الخارجية والمحافظون الجدد جزء ثابت منها. قد يبالغون فى دورهم وقد يبالغ أعداؤهم فيه، ولكن سارت أمريكا المحافظة فى ركبهم. ولا يزال مبدأ بوش خاضعًا للترقيع، إلا أن أمريكا الآن وبأى معيار من المعايير، أكثر التزامًا بمسار أحادى منفرد وأكثر استعدادًا للتدخل فى الخارج وللنظر إلى العالم بعيون أخلاقية.

إن الأوروپيين الذين يتصورون أن المحافظين الجدد اخترقوا بالخديعة صفوف المحافظين الأمريكيين فهموا الأمور بالعكس. فسبب نفوذ المحافظين الجدد لم يكن

خداعهم زملاءهم المحافظين، بل نجاحهم فى ترجمة بعض من ميول أمريكا المحافظة إلى نظرية فى السياسة الخارجية. وهذا يبين أن المحافظين الجدد كانوا أقل نفوذًا وأكثر مما يتصور الأوروبيون فى آن. فكانوا أقل نفوذًا لأنهم ببساطة كانوا يصوغون ما يعتمل فى قلوب بقية أمة اليمين فى كلمات. ولكنهم كانوا أكثر نفوذًا لأنهم ساعدوا فى صوغ الرد الأمريكى على حدث رهيب. وستظل أصداء لحظة المحافظين الجدد تتردد لسنوات عديدة قادمة.

* * *